المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

اولى مغامرات الكولونيل (لجمن)

في الجزيرة العربية سنة ١٩٠٩ـ١٩١٠(*)

ترجمـــة
سليم طه التكريتي
بغـداد حي ١٤ تموز

في الثالث والعشرين من نيسان ١٩١٠ ، ومن بغداد ، كتب « لجمن » الى والدته ، التي اعتاد ان يبعث اليها برسائله عن كل اعماله ومغامراته ، رسالة يقول فيها (ان الذي اتصوره هو انك ستظنين بانني قد اختفيت لغرض حسن . انني ساسافر لمدة طويلة . ومع هذا احذرك بانني لا استطيع ان انبئك عن المكان الذي اتجه اليه . لقد قررت القيام بمحاولة لبلوغ الاجـــزاء المجهولة من اواسط الجزيرة العربية . والاتراك يقاومون ، لسبب ما ، مثل هذه المطامع . وعلى هذا فانا اواجه مشـقة عظمى في انجاز هذه المحاولة) .

ومع ان الرحلة التي اشار اليها لجمن في رسالته هذه لم تكن ، في هذه المناسبة ، ناجحة الى الحد الذي يبلغ فيـه الهدف الذي كان يتوخاه ، مع ذلك كانت تلك الرحلة من الرحلات ذات الاهمية البالغة التي ظفرت بما كانت تستحقه .

كان لجمن يخطط لهذه الرحلة منذ زمن طويل وهو في طريقه اليها ، ويعد نفسه لتنفيذها . ولذلك بذل جهدا بالغا في تعلم اللغة العربية ، ثم نجح نجاحا باهرا في امتحانه بتلك اللغة ، كما قيل له ذلك .

كان لجمن قد قام قبلا برحلة تمهيدية عبر الجزيرة ليظفر بالتجربة ، كما درس بعض الادبيات المحدودة عن الجزيـــرة العربية ، واطلع بعناية على ما دونه الرحالون السابقون في الجزيرة العربية وما تجشمه من تجارب لهم فيها . فهذا الجهد التمهيـدي الوطيد يظهر بوضوح جدية نواياه ، مثلما يظهر العناية والصبر اللذين سلح نفسه بهما كيما يكون قادرا على مجابهة المشـــاق التي ستواجهه فيما بعد .

كان عقله الفعال وطبيعته النموذجية لا تسمحان له بتقليل الاخطار والمصاعب المادية التي لابد لها ان تعترضه اذا ما قـام برحلة من هذه الشاكلة . كذلك لا يسمح له تصميمه بان يهمل اي حذر قد يعينه على انجاز مشاريعه .

استقل لجمن الباخرة « كولا » في « كراچي » متوجها الى الخليج العربي في الثالث عشر من شهر تشرين الثاني . وبعـد ان غادر «مسقط» ، التي التقى فيهابالملازم «فاول» ذلك الضابط القدير الذي اصبح فيما بعد احد الخبراء بالشؤون العربية ، تعرض الى جو قاس جدا . ذلك ان عاصفة كاسحة جعلت السفرة تبدو في كل شيء غير مريحة ، حيث غمرت احدى الامواج السفينة وقتلت احد المسافرين .

وصل لجمن ميناء « بو شهر » في السادس عشر من تشرين الثاني ، ثم حط رحاله بعد يومين في « المحمرة » ليستمتع بضيافة الملازم تي . اي . ولسن الذي اصبح فيما بعـــد « السرارنولد ولسن » حاكم العراق الذي قدمه بدوره الى رجل هادىء قوي العضل ، يبدو في مظهر الباحثين ممن يستطيع ان يتغلغل في اي مجتمع دون ان يحس به احد سوى صاحبهالملاحظة الدقيقة ، والذي كان يحتفظ بشخصية مرموقة لما يتحلى به من هدوء ورزانة .

كان ذلك الرجل هو « سون » (١) الذي جاب انحـــاء كردستان متنكرا . وكان قبلا موظفا في احد المصارف ثم اصبح

---

* هذا فصل من كتاب « مغامرات لجمن في الجزيرة العربية والعراق ١٩٠٨ـ١٩٢٠ » وهو ترجمة امينة للكتاب الذي وضعه « الميجر براي » الحاكم السياسي الانكليزي لمحافظة كربلاء اثناء الاحتلال الانكليزي للعراق ، عن حياة المغامر البريطاني المقيد لجمن حتى مصرعه بيد الشيخ ضـاري ابان اشتعال نار الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ وقد اعتمد فيه المؤلف كلية على مذكرات لجمن ورسائلـــه الشخصية ، ونشره سنة ١٩٣٦ تحت عنوان « بطل من الجزيرة العربيـــة A Paldin of Arabia ويقع في اكثر من اربعمائة وثلاثين صفحة مع عدد من الصور المهمة . وحين قام لجمن بهذه المغامرة الاولى كان يعمـل برتبة ملازم اول في احدى الوحدات العسكرية البريطانية في مدينة « راول بندي » في الهند التي وصلها في اوائل تشرين الثاني سنة ١٩٠٧ .

« المترجم »

(١) سون E.A. Soane من رجال الاستخبارات البريطانية الشهيرين في البلاد العربية عمل في العراق قبيل الحرب العالمية الاولى واتخذ منطقة كردستان مقرا لنشاطه فزارها متنكرا في صفته درويش سنة ١٩١٠ـ١٩١١ ووثق اتصالاته برؤساء عشيرة الجاف واصبح حاكما سياسيا للسليمانية اثناء الاحتلال البريطاني . دون مذكراته تحت عنـــوان « رحلة تنكرية الى كردستان » وقد ترجمها المرحوم فؤاد جميل ونشرها في جزئين وكان « سون » هو الذي وضع قواعد اللغة الكردية لاول مرة .

ـ المترجم ـ

مؤخرا قوميا وبطلا ومضحيا في سبيل الواجب . جمعت هذه الصدفة لاول مرة ثلاثة من اشهر المشهورين ممن عرفناهم في جيلنا ، ثلاثة رجال ممن خدموا انكلترا اجل خدمة وبلا فضول ، ذلك لان ايا منهم لم يكن معروفا من ابناء وطنه ، او لان عملهم قد تنوسي بعض الوقت . كذلك زار لجمن شيخ « المحمرة » (٢) صديق بريطانيا الحميم ، مثلما كان عليه اسلافه من قبل ، واعجب بحرسه المدججين بالسلاح ، لكنه وجد العاصمة قليلة الاهمية . كانت اللغة العربية التي يتكلم بها سكان هذه الانحاء ـ كما قرر ذلك بصواب ـ رديئة لم يستطع فهمها وهذا ما اثار دهشته بعض الشيء

وفي الليلة الثالثة لمكوثه استمتع هو وجماعة كبيرة بضيافة تاجر فرنسي كانت بين ضيوفه اربع نساء ذوات عفة مشكوك فيها ان قليلا ام كثيرا !. ولقد عاد في الساعة الثالثة صباحا بعد ليلة معربدة . وفي الليلة التي تلتها وصل الى البصرة فنزل في بيت المستر « ماكي » من موظفي « شركة ستريك » (٣) حيث مكث في البصرة حتى السادس والعشرين من تشرين الثاني . ثم واصل تعلمه اللغة العربية تحت اشراف رجل من بغداد . كانت الحروف التي يكتب بها جديدة عليه ولذلك وجد مشقة في تعلمها .

غادر لجمن البصرة في السادس والعشرين من تشرين الثاني الى بغداد فوصلها في اليوم الثاني من كانون الاول .

كان المقيم البريطاني في بغداد المستر « لوريمر » (٤) صاحب كتاب « تقويم الخليج » ـ وهو من المؤلفات النموذجية عن الخليج العربي ، قد اصر على بقاء لجمن في دار المقيمية ، حيث جعله لوريمر وزوجته المرحة يشعر بمنتهى السعادة . وفي المقيمية التقى لجمن بالسر وليم ولكوكس (٥) المهندس الشهير الذي انجز في مصر عملا ما يزال يقوم شاهدا على مهارته العجيبة ، والذي يعمل الان لدى الحكومة التركية لوضع نظام واسع للري في بلاد الرافدين .

جدد لجمن اتصالاته مع كثير من الاصدقاء (٦) واوجد صلات اخرى مع اصدقاء جدد من الانكليز والعرب والاتراك . ذلك لانه لم يكن موهوبا في انشاء علاقات الصداقة كما هو معروف عنه حسب ، وانما لانه لم يضع ايه فرصة تمر دون التعرف الى من يعتقد بانه سيكون ذا نفع له .

جاء اليه شقيق صديقه « عزو » الذي علمه اللغة العربية في كلكتا (٧) والذي توفي في اوائل سنة ١٩١٤ ، يدعوه الى منزله وقد زوده بمدرس « منوعات » وبخادم يدعى (حاجي عجم) « وهو ايراني لا يعرف شيئا ما » واصطحب معه احد الهنود « النواب » من « اسرة اوده » فانطلق الى الصحراء راكبا وزاد من نطاق تعلمه العربية وذلك بالدرس على « عزيز عزو » وعلى ملائي كهل يدعى « سيدرسن »

لنعد الان الى ما اقتطفناه في بداية هذا الفصل من رسالته الى امه ، ونراقب طرائقه في العمل . لقد احتفظ بخططه سرا دفينا في صدره . ومع ذلك فقد ارتاب الاتراك ارتيابا شديدا فيه واكثروا من الشك في نواياه وقد استجوبوه عن اسباب قدومه الى بغداد لكن اجوبته كانت واحدة على الدوام ، وكان يلقيها بابتسامة عجيبة غامضة « ان المناخ يلائمني جد الملائمة . ان بغداد والصحراء تدخلان السرور الى نفسي كثيرا وان لي اصدقاء كثيرين انعم برفقتهم »

وبهذه الطريقة واصل اقتناصه السفرات ، وتجواله على ظهور الخيل ، واقام حفلاته الصاخبة واظهر مسلكه الذي يدل على البراءة .

واستمر الاتراك في تعقبه ومراقبته عن كثب . ومع ذلك لم يستطيعوا ان يكتشفوا اي شيء مريب في تصرفاته . وكان الاجراء التالي الذي صمم على تنفيذه هو ان يهدىء قلقهم حينما تتهيأ الفرصة امامه لمغادرة المدينة . فلقد قام علانية بجولة مشاهدة واستطلاع ، واستطاع ان يظهر كل البراءة في حركاته .

وفي الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والاربعين من صباح اليوم الرابع عشر من كانون الاول ، استقل علانية عربة في طريقه الى مدينة كربلاء .

---

(٢) هو الشيخ خزعل امير الاحواز او عربستان الاقليم العراقي الذي سلخ من العراق والحق بايران غدرا . وكان خزعل واجداده ممن مهدوا للنفوذ الانكليزي في الخليج العربي والاحواز والعراق . غير ان الانكليز ، بعد ان انتهت حاجتهم اليه ، اثاروا الحكومة الايرانية ضده فبعثت بجيوشها الى الاحواز واستولت على « المحمرة » عاصمتها واخذت الشيخ خزعل اسيرا الى طهران ثم قتلته في السجن .

ـ المترجم ـ

(٣) شركة ستريك Messrs Strick من شركات النقل البحري البريطانية الشهيرة كانت لها فروعها في بغداد والبصرة حتى ما قبل الحرب العالمية الاولى بزمن طويل وقد صفيت اعمالها في العراق مؤخرا .

ـ المترجم ـ

(٤) لوريمر Lorimer من اساطين الامبراطورية البريطانية في الشرق الاوسط . اختص بمنطقة الخليج العربي وعمل مقيما لبريطانيا فيه ثم تولى مقيمية بغداد سنة ١٩١٠ وضع اعظم كتاب عن الخليج العربي في اربعة مجلدات ضخمة نشرته حكومة الهند سنة ١٩١٥ في مائة نسخة حسب وقامت حكومة قطر بترجمته الى العربية ونشره .

ـ المترجم ـ

(٥) السر وليم ولكوكس Sir W. Wilcox من مشاهير مهندسي الري الانكليز اشرف على بناء القناطر الخيرية في مصر ثم اقام سدة الهندية في العراق ووضع تقريرا مسهبا عن الري فيه كما انه هو الذي وضع اسس مشروع سدة الكوت .

ـ المترجم ـ

(٦) نذكر القارىء الكريم بانه سبق للكولونيل لجمن ان زار العراق خلسة ولاول مرة سنة ١٩٠٨ .

ـ المترجم ـ

(٧) عائلة « عزو » من العوائل المسيحية التي نزحت من الموصل واستوطنت بغداد قبل سنين عديدة وصاحب « لجمن » الذي علمه العربية في كلكتا هو « فؤاد عزو » شقيق «عزيز عزو » الذي تعرف اليه في بغداد وساعده في مغامرته الاولى الى الجزيرة العربية ومكنه من ان يتملص من الجندرمة الاتراك اللذين تعقبوه الى كربلاء .

ـ المترجم ـ

ولقد اعلن عن مقدمه الى المدينة اعلانا تاما فاستقبلـه القنصل البريطاني « محمد حسن » (٨) على بعد ثمانية اميال خارج المدينة . وكان الطريق الذي سار فيه يعج بالزوار الذين اتخذوا سبيلهم الى مرقد « الحسين » في حين كانت المدينةذاتها تغص بالاخرين الذين كانوا يحتفلون بالذكرى المؤسفة لمقتل ذلك الامام .

والحقيقة ان استقبال لجمن من لدن موظف بريطاني قد اضفى عليه اهمية استطاع ان يستغلها بحذر . فقد كان يود ان يخلق لنفسه مثل هذه الشهرة التي يستطيع عن طريقها ان يلتقي بالكبار من القوم ، ومن هم ادنى منهم ، بحيثتصبح معلوماته كاملة ، ويكون مجال مخادعته ضئيلا .

كان يعتزم ان يلتقي بامراء الجزيرة العربية كيما يحكم على قابلياتهم ، ويحصل على المعلومات الصحيحة عنها وكانت الانباء تجتاز الجزيرة العربية بطريقة سريعة سحرية مما الفه الشرق ، اذ يرويها الرجال في مشارب القهوة وهم يجتازونها الواحد بعد الاخر في متاهات الصحراء دون توقف .

ولقد استفاد لجمن من الدروس التي تعلمها الرحالون الذين سبقوه . لكنه مع ذلك صمم على ان يغاير طرائقهم . ولذلك حل ، وهو في كربلاء ، في بيت « مجيد خان » (٩) احد الامراء الفرس . واستدعاه المتصرف « جلال بك » ومعه عقيد كردي هو امر الحامية التركية هناك . وخرج في نزهته للصيد على مسافة عشرة اميال بامتداد طريق « النجف » حيث شاهد العديد من خيام « بني حسن » تتناثر في السهول ، واكثر من هذا اهمية علم منهم انه قبل شهرين مضت كانت قبيلتا «شمر» و « عنزة » تخيمان بجوارهم وقد بلغ مجموع خيامهما خمسة عشر الف خيمة .

وبما اظهره من سذاجة ودقة في تصرفاته ، اخفق الموظفون الاتراك ان يلاحظوا بانه قد اكمل استعداداته لحركة جريئة ينجزها رغم انوفهم .

* * *

في السابع عشر من كانون الاول مر بدوي من نقطة الحراسة التركية في « شفاثة » (١٠) دون ان يثير اية شبهة حوله قط . لكن ذلك البدوي كان في الواقع يحمل في ذهنه تعليمات معينة ، ويخفي في اطواء عباءته رسالة مع مكافاة مناسبة من لجمن .

واصل لجمن جولته فبلغ مدينة « النجف » في مساء الثامن عشر من كانون الاول . وقد استدعاه القائممقام فيها ، وزار « الكوفة » ، وطاف بالنجف منقبا متحريا في ارجائها . كما استقبله فيها المجتهد الايراني الشهير السيد كاظم الطباطبائي (١١) .

وعاد الى الصيد ثانية فسرب مضارب بني حسن وغادرها الى « ابي صخير » (١٢) و « الجعارة » (١٣) ثم عاد في تلك الليلة الى الكوفة .

ورحلات الصيد القصيرة هذه قد تبدو منالمتع غير المربحة، لكنها بالنسبة لرجل لم ينس اية علامة،كانت تخدم غرضا اخر. وفضلا عن ذلك فقد كان كل فرد في المناطق المجاورة يتشوق الى معرفة شيء ما عن هذا الغريب الذي كان يبدد ما لديه من ذخيرة وهو مبتهج بذلك .

في الحادي والعشرين من الشهر ذاته ذهب لجمن الى « الكفل » ووصل « سدة الهندية » وقد استغرقت منه هذه الرحلة عشر ساعات . وهنا التقى برجل صاحب امر ونهي « احد الملالي الشواذ يضع نظارتين على عينيه ، ويرتدي جبة سوداء » قدمها له احد الموظفين هدية . وكذلك التقى هناك بممثل قائممقام الحلة ، وبوكيل الثري اليهودي في بغداد « مناحيم دانيال » والذي اصبح فيما بعد معروفا لكل الموظفين البريطانيين ايام الاحتلال .

وقام لجمن بزيارة قبر « حزقيال » وهو بناء مخيف ، و « برس نمرود » الموقع التقليدي لبرج بابل ، ثم عاد الى « الحلة » حيث مكث مع « عزرا » بن مناحيم دانيال (١٥) ،

---

(٨) محمد حسن من الهنود العاملين في الجيش البريطاني في الهند وقد اختير في وقت من الاوقات قنصلا لبريطانيا في كربلاء . وكما هي العادة فقد كانت بريطانيا قبل ان تفكر في احتلال العراق تستعين بخدامها من الفرس والهنود والعرب وغيرهم في تنفيذ مطامعها التي كانت في ذلك الوقت تتركز في توطيد نفوذها في العراق وغيره من الاقطار الاخرى التي كانت خاضعة للحكم العثماني .

— المترجم —

(٩) آل مجيد خان من العوائل الايرانية الشهيرة التي استوطنت كربلاء منذ اكثر من مائتي سنة وتملكت فيها الاملاكالواسعة وعميد هذه العائلة في الوقت الحاضر هو مصطفى خان الذي يقيم مع افراد عائلته في بغداد .

— المترجم —

(١٠) « شفاثة » وتعرف باسم « شنافة » مركز « عين التمر » من النواحي التابعة لكربلاء وتقع في الصحراء وتقوم فيها بساتين عديدة من النخيل تروى بمياه الابار .

— المترجم —

(١١) شارك المجتهد كاظم الطباطبائي في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ضد الانكليز باصداره فتوى بالجهاد وكان له اثره في ايقاد الحماسة في نفوس الثوار .

— المترجم —

(١٢) ابو صخير كتبها المؤلف خطأ « ابو سخان » بلبدة تقع على فرع البكرية من الفرات انشئت قبيل الحربالعالمية الاولى تسكنها عشائر كثيرة من آل فتلة وآل ابراهيم وهي تقع جنوبي النجف بثمانية عشر كيلومترا وتعد من اقضية لواء الديوانية .

— المترجم —

(١٣) ذكرها المؤلف باسم « الجمايا » وهو خطأ واضح والصحيح انها « الجعارة » التي تسمى الان باسم « الحيرة » .

— المترجم —

(١٤) حزقيال من انبياء اليهود الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم باسم « ذو الكفل » وقبره موجود في قصبة « الكفل » التي سميت باسمه على مقربة من الحلة وهو من المزارات المقدسة لدى اليهود

— المترجم —

(١٥) مناحيم دانيال من اشهر اثرياء اليهود في العراق وقد انشأ لهم عددا كبيرا من المنشئات الخيرية لليهودكالمدارس والمستشفيات والمشاغل في بغداد وغيرها من المدن كما بنى

ومن ثم زار اطلال بابل وعاد الى الحلة ثانية حيث زار « مستشفى قدرا » ومدرسة الاليانس اليهودية التي انشد له طلابها نشيد « يحفظ الله الملك ! » عند تناوله طعام العشاء في تلك الليلة والذي دعي اليه علية القوم بما فيهم الملائي البارز وهو « شخص غير مقبول ، ورجل شديد الخشونة والجفاء »

ثم واصل سفرته ، التي تخللها صيد الدراج ، على مثل هذا المظهر الاميري الفخم الى « المسيب » ومنها كر راجعا الى بغداد .

* * *

لم يكن يعرف في سنة ١٩١٠ سوى النزر الضئيل عن الاماكن التي زارها لجمن ، او الاشخاص الذين قابلهم . وحتى حلول كانون الثاني من تلك السنة كان وجود لجمن في بغداد مقتصرا على حضور الحفلات ، والقيام بالزيارات الخاصة ، ومنها زياراته المتوالية للسيد داود بك الداغستاني ابن محمد باشا الداغستاني والي الموصل (١٦)

ولقد تضاعفت شكوك الاتراك حول لجمن بسبب هذه الزيارات واللقاءات التي كان يقوم بها ، ولذلك فرضوا عليه رقابة مشددة . على انه ما لبث في الثالث عشر من كانون الثاني ١٩١٠ ان اختفى من بغداد بشكل عجيب ومثير . وبلغ من شدة تكتمه في اختفائه ذلك انه لم يدون في يومياته شيئا عما فعله والى اين ذهب ، مخافة ان تقع تلك اليوميات في ايدي الاتراك .

ما ان عاد الرسول الذي بعث به لجمن من كربلاء وهو يحمل جواب رسالته التي ارسلها معه ، حتى تبدل نمط حياة لجمن وتبدل مسلكه تماما .

فقد اختفى ثلاثة ايام لاكمال تنكره . ذلك لانه قرر ان يزور قبيلة « شمر » احدى القبائل البدوية الكبرى التي تقطن اواسط الجزيرة العربية .

بعد ان اتم لجمن تنكره في زي بدوي لاول مرة امضى يوما كاملا في « الكاظمية » . وحين اسدل الليل استاره اصطحب معه دليله « خضير بن عباس » فغادرا المدينة وهي غرقى في سباتها ، يصحبهما بعض الرفاق ، ثم التقط جوادا وبدويين كانا ينتظرانه لايصاله الى مضارب العرب .

وبعد ان اجتاز القسم الاعلى والجاف من نهاية قناة « الصقلاوية » (١٧) قرب « خان المفتش » (١٨) اقتادته جماعته بسرعة الى مضرب خيام الاعراب .

لم يدون لجمن في يومياته شيئا عن الحديث الذي داربينه وبين « الشيخ عبدالله » (١٩) لكن الذي عرفناه من مصادر اخرى هو انه كان يحاول اقناع الشيخ ان ياخذه معه الى حائل .

سار لجمن في الظلام الى مضرب بيوت الشيخ عبدالله رئيس « العكنار » احد افخاذ شمر ، والذي كان يضم حوالي ثلثمائة بيت انتشرت في ضواحي « الشويب » (٢٠) وعلى هذه الشاكلة استطاع لجمن ان يقيم اول اتصال له مع احدى القبائل البدوية الكبيرة في اواسط الجزيرة العربية .

واستقبله الشيخ عبدالله بترحاب كبير وراح لجمن يبحث معه مطامحه في الوصول الى « نجد » وافضى اليه بانه علم ، اثناء وجوده في كربلاء ، ان « شمر » (٢١) تعتزم الرحيل الى حائل تحت زعامة الشيخ « ماجد بن عجيل » والذي كانت تربطه معاهدة بامير شمر في حائل « الشيخ سعود بن عبدالعزيز الرشيد » (٢٢) .

سبق للجمن ان مهد الطريق امام اجتماع له مع الشيخ ماجد بن عجيل الذي اعرب له عن رغبته في الاجتماع به . ولذلك ظل لجمن في بغداد ينتظر الى ان تهيأت له الفرصة للاتصال بالقبيلة حيث طلب اليه « ماجد » ان يبقى هادئا هناك الى ان تخف رقابة الاتراك له .

ذلك ان شمر كانت متحالفة مع الاتراك . وكان على « ماجد » ان يتصرف بحذر شديد مخافة ان ينفضح سر استقباله واجتماعه مع لجمن وعلى هذا وجهت النصيحة الى لجمن بان يصل الى مضرب الشيخ ماجد في طريق لا يترك اي اثر وراءه .

وثم تنفيذ ذلك ببراعة ، ولم يرتب الاتراك في تسلل لجمن من الكاظمية وبهذا فقدوا اثره منذ البداية .

سوقا في بغداد في منطقة جامع مرجان او المصبغة لا يزال يعرف حتى الان باسم « سوق دانيال »

— المترجم —

(١٦) محمد باشا الداغستاني ، واسمه الكامل محمد فاضل باشا الداغستاني من اشهر شخصيات جماعة «الچچن» او « الجيجي » الذين هاجروا سنة ١٨٦٠ من اقليم « داغستان » في روسيا الى تركيا واستقروا فيها . وقد كان من العسكريين المشهورين اشترك في عدة حروب منها الحرب العثمانية الروسية سنة ١٨٧٧ اشغل ولاية بغداد وكالة عدة مرات ووصل الى رتبة فريق وتولى قيادة الجيش العشائري في العراق في ربيع ١٩١٦ وقد استشهد في معركة الكوت في تلك السنة ودفن في مقبرة الامام الاعظم ببغداد

— المترجم —

(١٧) قناة الصقلاوية فرع من نهر الفرات يتفرع عنه عند الرمادي وبعد ان يسير بشكل عمود مسافة خمسة عشر كيلومترا ينقسم الى جدولين هما جدول ابراهيم العلي وجدول علي السليمان وتقوم على القناة بلدة الصقلاوية ايضا.

— المترجم —

(١٨) خان المفتش . المقصود به « خان النقطة » اي نقطة التفتيش قبل دخول بغداد وهو ذات الخان الذي قتل لجمن فيه ويعرف باسم « خان ضاري »

— المترجم —

(١٩) الشيخ عبدالله هو رئيس فخذ من عشيرة شمر كانت ضاربة اطنابها آنذاك قرب الفلوجة

— المترجم —

(٢٠) الشويب منطقة وسهل تمتد بين ابي غريب والفلوجة

(٢١) ذكر المؤلف شمر بانها ابدر شمر Abdar Shammar والصحيح هو عبدة شمر و« عبدة » احد الافخاذ الرئيسة لقبيلة شمر

— المترجم —

(٢٢) سعود بن عبدالعزيز الرشيد هو امير حائل الذي قابله لجمن في سفرته الاولى هذه الى نجد

— المترجم —

نهد لجمن في اليوم التالي الى « المعمورية » احد افخاذ « زبيد » الذي يترأسه الشيخ « مزهر » (٢٣) وعند حلول الظلام بلغ خيام « سنجارة » (٢٤) وهي قوة تابعة للشيخ ماجد . وفي اليوم التالي بلغ مضارب الشيخ ماجد ذاتها والتي كانت قائمة في « تل ابراهيم » (٢٥) .

وركب لجمن ، وهو متنكر في زي بدوي ، مع الشيخ ماجد الى « المسيب » بحثا ، من دون جدوى ، عن رجال من قبيلة « عقيل » يتعاطون تجارة الابل .

وقد دللت هذه الزيارة الى المسيب على برودة لجمن وثقته بنفسه ، ودقة تنكره .

كانت المسيب تضم عددا من الموظفين الاتراك . ونظرا لوقوعها على الطريق بين بغداد وكربلاء فقد اقيمت فيها نقطة حراسة خاصة لمراقبة لجمن بالذات .

ولكن لجمن عاد الى بغداد في الثامن عشر من كانون الثاني ودخل المدينة ليلا دون ان يحس به احد . وفي صباح اليوم التالي ارتدى ملابسه الاعتيادية وراح يزاول عمله المعتاد الامر الذي اغضب السلطات التركية التي علمت باختفائه ، لكنها اخفقت في معرفة المكان الذي ذهب اليه ، ومعرفة الطريقة التي تخلص بها من مراقبتها القوية له .

ولقد عاد الى بغداد مضطرا لانه كان عليه ان ينتظر الشيخ ماجد الى ان يتهيأ للسفر . غير ان عودته تلك ضاعفت من مصاعبه . فقد ضاعف الاتراك مراقبته ، وتتبع حركاته وسكناته. ومع ذلك استطاع لجمن ان يخدعهم بان اظهر نفسه علانية وكانه لا يعرف من امر تلك الرقابة شيئا . وفي غضون يومين من عودته استطاع ان يغادر بغداد فجأة الى كربلاء ومن دون ان يثير جواسيس الاتراك ضده ، في سفرة تمت ليلا .

كان اصدقاؤه ينتظرونه بكامل اسلحتهم في بيت الشيخ ماجد بكربلاء وقد اعد لجمن خطته قبل السفر على اساس ان تنتظره ابله خارج المدينة . لكنه لم يستطع الاتصال بها لانه وجد نفسه في كل لحظة محاطا برجال الشرطة التركية .

وبعد مشاق عديدة اتصل اصدقاؤه العرب به عن طريق صديقه المسيحي « عزيز عزو » حيث رسمت خطة تهربه من كربلاء . كان « عزيز » يمتلك بستانا للنخيل تتاخمه قناة جافة ، واخرى تمتد الى الطريق الرئيس .

وفي وقت محدد وقبل ان تطلع شمس السادس والعشرين من كانون الثاني ، استدعى « عزيز عزو » لجمن اليه في الوقت الذي كانت تقف فيه قوة من الشرطة التركية على باب المنزل . واستطاع لجمن ان يعبر البستان المجاور لمنزل « عزيز عزو » ، وان يختفي بين الاشجار ثم يصل الى باب من البستان تنفتح على قناة ليهبط اليها ويسير فيها بخفة ، ويصل الى بساتين خارج المدينة حيث كان ينتظره اصدقاؤه الذين تجمعوا هناك من طرق مختلفة ومعهم عشرة جياد حسنة .

كان الظلام تاما حين اسرع لجمن بزيه العربي مع اصدقائه في الانفلات داخل الصحراء . لقد اتجهوا الى هور «ابي دبس»(٢٦) فعبروه ليخفوا بذلك اثارهم ، ومن ثم ساروا مسرعين حتى وصلوا مخيم الشيخ ماجد في الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

كان مضرب الشيخ ماجد يتالف من مائتي خيمة ، وقد اسرع لجمن وهو محاط بحرسه الى الخيم في اقصى المضرب فقبع هناك ينتظر تطور الاحداث .

وفي الوقت ذاته كان رجال الشرطة ينتظرون بنفاد صبر مدة اربع ساعات عند باب منزل « عزيز عزو » وهم يحدقون في تلك الباب المغلقة كيما تنفتح ويطل لجمن منها . غير ان الباب ظلت مغلقة ولم يظهر اي دليل على وجوده . واخيرا ساورتهم الشكوك في وقوع امر ما ، ولذلك دخلوا المنزل والبستان ففتشوهما دون ان يعثروا على اثر فيهما مما اكد لهم حقيقة هربه .

صدرت الاوامر منذرة بالتعقيب . وراحت ثلاث طوائف من الجندرمة تتعقب اثار لجمن في اتجاهات متباينة .

وتوجهت الجندرمة الى مضرب للاعراب في المنطقة المجاورة. بل ان احدى تلك الطوائف وصلت مضرب الشيخ ماجد ذاته . وحين اعطوا اوصاف لجمن لمن صادفوه من افراد المضرب قيل لهم ان احدا لم ير شخصا تنطبق عليه تلك الاوصاف . ومع ذلك لم يقتنع رجال الجندرمة بما تلقوه من اجوبة ، فراحوا يفتشون الخيام بكل ما استطاعوه من قدرة لكنهم لم يعثروا على شخص له ادنى شبه بلجمن . وحينئذ تخلوا عن التفتيش ، وعادوا الى كربلاء لتقديم تقرير عما قاموا به .

وفي فجر اليوم التالي قوضت الخيام ، وتحركت القبيلة نحو الجنوب تضرب في محيط مترام من الصحراء وبذلك بدات اول رحلة اكتشاف كبرى يقوم بها لجمن .

* * *

كانت كل امال لجمن قد تركزت في هدف واحد هو الوصول الى « حائل » عاصمة « ابن الرشيد » التي لم يزرها احد من الاوربيين منذ ان زارها الرحالة الالماني « البارون توللده » سنة ١٨٩٣ (٢٧) .

---

(٢٣) ذكر المؤلف اسم هذا الشيخ هزر Hazar واعتقد انه تحريف لاسم « مزهر » وهو من الاسماء الشائعة لدى زبيد وربما كان نفسه هو مزهر السمرمد شيخ زبيد السابق اما « المعمورية » فانها فخذ من زبيد
ـ المترجم ـ

(٢٤) زغانت Zigant والصواب « سنجارة » وهو فخذ من افخاذ شمر الرئيسة
ـ المترجم ـ

(٢٥) تل ابراهيم هي اطلال مدينة كوثي البابلية الشهيرة وتقع على مقربة من مدينة المسيب
ـ المترجم ـ

(٢٦) هور ابي دبس يقع في غربي كربلاء ويصعد الى شفاثة وتصب فيه مياه بحيرة الحبانية في اوقات الفيضان العالي احيانا كما يتصل بجدول الحسينية الذي تقع عليه مدينة كربلاء احيانا اخرى .

(٢٧) اظن ان المؤلف قد اخطأ في ذكر هذا الاسم فالذي اعتقده ان المقصود به هو المستشرق الالماني الشهير تيودور نولدكه

والواقع ان المدونات المتوفرة تشير الى ان عدد الاوربيين الذين زاروا عاصمة شمر هذه كان اقل من عشرة . وكانت مدينة الرياض من الاهداف الاخرى التي تطلع اليها لجمن ايضا .

كانت الصعوبات القائمة في سبيل لجمن اعظم مما كان يتصوره فقد حدث ان ساد الصحراء كلها في وقت من الاوقات اضطراب واسع فراحت تنقلات القبائل البدوية تجري في كل مكان منها وحولت غاراتهم المتعاقبة تلك الصحراء الى ميدان واسع للحرب .

وكان الصراع الطويل بين ابن الرشيد حاكم حائل وابن سعود حاكم نجد قد اخذ يتسم بالحدة والقسوة .

وفي الوقت ذاته كان الشيخ مبارك بن الصباح حاكم الكويت حليفا لابن الرشيد . لكنه ما لبث ان حمل السلاح الى جانب ابن السعود بشكل واضح .

واستطاع فخذ « الرولة » من قبيلة « عنزة » ان يدحر قوات ابن الرشيد في « الجوف » (٢٨) وان يجرد هجوما على عاصمة شمر ذاتها في نفس الوقت الذي كان فيه « فهد بك » رئيس عنزة ، وهي من اكبر القبائل البدوية ، يتحرك نحو الجنوب بقوة كبيرة لم يسبق لعنزة ان حشدت مثلها من قبل ، في حين كانت افخاذ اخرى لقبائل عدة تشتبك فيما بينها في حروب اقل اهمية .

لقد القى لجمن بنفسه في مثل هذا الخضم من الاضطراب الذي قد يلف رفاقه في اية لحظة من اللحظات .

ولذلك كانت المسيرة نحو الجنوب محاطة بالحذر الشديد ، وكانت متواصلة ليل نهار . كان تقدم القوم في مسيرتهم بطيئا ومريحا يشوبه الهدوء وعدم الاضطراب . ولذلك كانوا يرقبون نتائج مغامرتهم تلك بفارق من رباطة الجاش وعدم المبالاة .

وكانت رباطة الجاش هذه نتيجة طبيعية لقرون من الاضطراب واجيال من المعاناة . والواقع ان الحالة السائدة انذاك كانت تعد من الاحوال المحتومة والقطعية .

لقد سجل الرحالون المشهورون في الجزيرة العربية من امثال « دوتي » (٢٩) و « هوبر » (٣٠) و و « الواموزيل » (٣١) وغيرهم ممن سجلوا باخلاص صعوبة العيش في الصحراء لقد قال هؤلاء بان لا مجال للتغيير . وكانت القصص العصرية والسينما قد صورت اضطراب الصحراء ابلغ تصوير . ولذلك تقبل العالم على نطاق متسع القول القائل ان شراسة قبائل الصحراء وتمردها حقيقة حتمية ، بل لقد اعتبر العالم مآسي حياة الصحراء تضيف المزيد من القصص الخيالية الى المناطق المتوحشة المنعزلة التي ينفق فيها السكان ، الذين اضر بهم الفقر ، حياتهم .

ومع ذلك كانت تلك الاقاليم تدلل على اداتين من ادوات التغيير الذي كان يبدو انه لن يقع ، وسلطت الانظار بعين العطف والانسانية على تلك الاماكن التي كان الظلام يسودها .

وحين كان لجمن ورفاقه يتحركون ببطء وحذر نحو المنطقة التي يحكمها ابن السعود (٣٢) ، كان هذا الرجل قد هياه القدر ليغير عوائد البدو واحوالهم في الطرف الجنوبي من الجزيرة العربية .

وصل لجمن في الثالث من شباط ١٩١٠ الى وادي الجرائيم (٣٣) على بعد مائة وسبعة اميال من المكان الذي بدا

---

(٢٨) الجوف من المدن المهمة في نجد تقع في منطقة جبلية في الجنوب الغربي من صحراء النفود وسط واحة تعرف باسمها وفي شرقي وادي سرحان . وتقوم المدينة على منحدر احد الجبال في وسطها قلعة قديمة كانت مبنى قيام هذه المدينة وللقلعة ابراج مبنية باللبن وفي واحة الجوف تقوم اشهر عين للماء في جزيرة العرب تبلغ مساحة فوهتها خمسين مترا نصبت عنها مضخة للارواء .
— المترجم —

(٢٩) دوتي Charles Doughty (١٨٤٣–١٩٢٦) سائح ورحاله انكليزي مشهور في الجزيرة العربية . قبل ان يبدأ رحلته امضى سنة في دمشق لتعلم العربية فيها ثم شرع برحلته الى نجد واواسط الجزيرة العربية وكتب الشيء الكثير عن اوضاعها الجغرافية والجيولوجية والاجتماعية وقد نشر مشاهداته تلك في كتاب ضخم سنة ١٨٧٨ .
— المترجم —

(٣٠) هوبر Huber من الرحالين الالمان الذين جابوا الجزيرة العربية في اواسط القرن التاسع عشر
— المترجم —

(٣١) الواموزل Aloi Musil مستشرق ورحالة جيكوسلوفاكي كان استاذا في جامعتي براغ وفينيا ومن الثقاة في التنقيب عن الاثار في الاردن وفلسطين قام برحلتين الى العراق والفرات الاوسط خلال ١٩١٢ و ١٩١٥ تقع رحلته في سبعة اجزاء ترجمتها الجمعية الجغرافية الامريكية الى الانكليزية واصدرتها سنة ١٩٢٧ بعنوان « رحلة طبوغرافية الى الفرات الاوسط »
— المترجم —

(٣٢) كلما ورد اسم « ابن السعود » هنا يقصد به « الملك عبدالعزيز بن السعود » مؤسس المملكة العربية السعودية الذي ولد في حدود سنة ١٨٧٩ واسس مملكته ، بعد طرد الملك حسين واولاده من الحجاز ، سنة ١٩٢٥ وبذلك ضم اليه الحجاز كله ونجدا بما فيها الاحساء والقطيف اللتين ظلتا زمنا طويلا تابعتين للعراق . وقد توفي الملك عبدالعزيز بن سعود صبيحة اليوم التاسع من تشرين الثاني سنة ١٩٥٣
— المترجم —

(٣٣) وادي الحرائيم يقع في مدخل « وادي الخر » في الجزء الجنوبي الشرقي من البادية الجنوبية في العراق
— المترجم —

Th. Noldeke (١٨٣٦–١٩٣٠) الذي تخصص في دراسة « تاريخ القرآن » فنشر هذا البحث المهم لاول مرة سنة ١٨٦٠ بالالمانية في ثلاثة مجلدات ووضع كتابا عن حياة الرسول محمد (ص) وترجم اجزاء من تاريخ الطبري الى الالمانية
— المترجم —

حركته منه . وفي هذا الوادي حقق لجمن اول اكتشافاته الجغرافية وهو وادي « الخر » المجرى الجاف لنهر قديم طوله اربعمائة ميل كان ينبع على مقربة من واحة . الجوف . ثم تنساب مياهه في ذلك الوادي لتصل الى مسافة اربعة او خمسة اميال عن « شط العرب » .

كانت اهمية هذا الاكتشاف ، ويعد لجمن اول اوربي حققه ، تتمثل في ان هذا الوادي يؤلف طريق مواصلات طبيعي وسهل عبر الاجزاء الشمالية من الجزيرة العربية ، وفي استخراج الماء منه بيسر .

على ان لجمن لم يكن ، عندما بلغ ذلك الوادي ، ليقدر اهمية اكتشافه او يعلق عليه كثيرا .

في الخامس من شباط وصل لجمن ورفاقه نقطة تبعد ثلاثة واربعين ميلا الى الجنوب فخيموا على مقربة من «سميت»(٣٤) في هذه النقطة كان «الصلبة»(٣٥) ، احدى فرق النور الضاربة في الصحراء والتي لا يعرف احد الاصل الذي تحدرت منه ، يعلمون ، بوسائلهم الغريبة الخاصة ، كل ما كان يحدث في الصحراء .

وقد ذكر هؤلاء الصلبة للمستر لجمن ورفاقه ان ابن الرشيد قد اغار على عنزة مؤخرا وقتل احد شيوخها وغنم بعض جيادها .

اثارت هذه الانباء شيئا من الفزع في صفوف اتباع « الشيخ ماجد » . فقد كان متوقعا ان يتلاقوا مع قبيلة عنزة المجاورة في اية لحظة ، وان يتعرضوا للانتقام على يديها لقاء الضرر الذي اصابها ، ورغم العداء التقليدي بين القبيلتين فان جماعة « ماجد » كانوا قد اصطحبوا معهم بعض الجياد لرئيس عنزة « فهد بك الهذال » وراحوا يسيرون بحذر اكثر ، ويبعثون بكشافتهم في المقدمة ، والى اجنحة مسيرتهم . وكانت لهم اسباب وجيهة تدعوهم الى الحذر الشديد لان احتمال تعرضهم للاضطراب تعاظم بعد ان اصبحوا الان يسيرون في منطقة تعود ، حسب قوانين الصحراء ، الى عنزة .

في عدد اذار سنة ١٩١١ من « المجلة الجغرافية » التي تصدرها الجمعية الجغرافية الملكية في لندن ، وهي من اشهر المجلات العلمية في انكلترا ، كتب لجمن مقالة عن مغامرته الاولى في اواسط جزيرة العرب قال فيها :

« كل هذه البلاد تقع في ديرة قبيلة عنزة الكبرى ، اي ان لها حق الرعي والسقاية فيها . وعنزة هي العدو الموروث لقبيلة « شمر » ولكن عن طريق المجاملات الغريبة في الصحراء تم التوصل الى اتفاق مع شيخ فرع « العمارات » من « عنزة » استطاعت به شمر ، التي كنت اسافر معها ، ان تحصل لها على اذن بالمرور في تلك الاراضي بسلام ، وان يكون في مخيمها جملة من رجال عنزة انفسهم .

وفي جوار « الحزول » (٣٦) علمنا من الصلبة نقلة الاخبار المشهورين في الصحراء ، ان عنزة كلها ، باستثناء فخذ واحد ، كانت تتحرك نحو الجنوب لمهاجمة « ابن الرشيد » .

وقبل ثلاثة اشهر كانت « الرولة » (٣٧) احد افخاذ عنزة التي خيمت حول « الجوف » قد هاجمت تلك المدينة واستولت عليها وقتلت حاكم ابن الرشيد فيها .

وكان « ابن سحيلان » شيخ الرولة قد عين ابنه حاكما في المدينة ، وفرض الضرائب على السكان .

وكانت عنزة الان تأمل ان تعقب ذلك النجاح بالاستيلاء على حائل ذاتها بمساعدة ابن سعود امير الرياض الذي قيل انه هو الاخر كان يتحرك صعدا من الجنوب .

وفي الثاني عشر من شباط وعند انبثاق الفجر شاهدنا عنزة تتحرك سائرة في خط مواز لمسيرتنا .

كان من سوء الحظ ان « الرولة » التي لم تكن لتعرف شيئا عن الاتفاق السابق ذكره بين شمر « والعمارات من عنزة ، كانت تسير في جناح مقارب لطريقنا . وسرعان ما اطبق فرسانهم عند حلول الظلام على « شمر » فاستولوا على كل ما كان لديها من متاع وابل وخيم وغيرها بعد قتال شمل عدة اميال من الارض .

كانت جماعتي الصغيرة المؤلفة من ثلاثة اشخاص ، قد اعدت العدة للهرب ، وتجنب « الرولة » واذ ذاك استطعنا ان ننجح في الوصول الى « العمارات » التي استقبلني شيخها «فهد بك» بمنتهى الرقة .

ولم يكن فهد نفسه قد سمع بامر الهجوم على شمر الا بعد ان انتهى القتال . ولذلك اتخذ الخطوات اللازمة في الحال لاعادة المنهوبات ، ونجح في رد قسم منها الى اهلها » .

يقول لجمن في يومياته انه استطاع ان يتجنب فرسان « الرولة » الذين هاجموا شمر على حين غرة ، بكلمات قلائل تحدث بها اليهم ، لكنه لم يفصح لنا تلك الكلمات ولا الطريقة التي استطاع بها تجنب الخطر .

غير ان تصرفه في تلك الحادثة وفي مناسبات اخرى غيرها ، لا يمكن ان يمر من دون تعليق ، لانه يكشف عن هدوئه وعن جراته وعن السرعة التي كان يتحرك بها دماغه والقرارات التي كان يتخذها .

كان الهجوم ، كما اشرنا اليه ، مباغتا اتسم بالشدة المفاجئة ، والواقع ان صيحات « الرولة » المفزعة ، وهدير

---

(٣٤) موقع سميت في البادية الجنوبية العراقية شرقي وادي الخر وعلى الطريق الذاهب الى شبيجه ووانصة
— المترجم —

(٣٥) الصلبة (بضم اللام وفتح الباء) والصليب جماعات من البدو تتنقل في انحاء الجزيرة العربية وفي العراق وسوريا وفلسطين . وقد كثرت الروايات في اصلهم فقال البعض انهم من بقايا الصليبيين الذين احتلوا فلسطين واجزاء من سوريا والعراق ولبنان ودلالة هؤلاء القائلين هي زرقة عيون الصلبة .
— المترجم —

(٣٦) الحزول احد الابار القائمة في تلك المنطقة وبقع في نهاية وادي الخر
— المترجم —

(٣٧) الرولة فرع من عنزة تسكن في المنطقة الممتدة بين وادي الخر ووادي السرحان في غربي البادية الجنوبية من العراق
— المترجم —

سنابك الخيل ، وسعة نطاق النار التي كان الفرسان المهاجمون يطلقونها من على ظهور خيولهم ، قد ضاعفت من الاضطراب الذي استولى على اتباع « ماجد » التعساء .

وكما هو معتاد بالنسبة للبدو من العرب كانت النيران ضارية . غير ان طلقات قليلة وجدت اهدافها مصادفة في بعض الرجال والخيل والابل . كانت الفوضاء مرعبة . وكانت عين لجمن اليقظة ترقب الحالة بدقة . وكانت ثانية واحدة تكفيه لكي يقرر مجرى العمل الذي يريد الاقدام عليه .

انه لا يستطيع ان يقذف بنفسه في هذه المعمعة ، فهو ان فقد حياته يذهب ضحية حمقاء ، وان جرح او اسر تكون كل مخططاته قد انتهت وتبخرت .

كان لجمن على راس الفصيل راكبا مع « ماجد » حين وقع الهجوم . وكان رفيقاه « خضر » و « زاوة » على مسافة منه

ولقد رأى ان فرسان الرولة سيهاجمون الجماعة التي كان يسير معها ولذلك خرج عنها وتحرك بسرعة الى جانب الفصيل بعيدا عن العدو ونادى رفيقيه خضر وزاوة بصوت عال ان يلحقا به حالا .

وخرج الثلاثة من حلبة القتال يضربون على غير هدى في الصحراء فبلغوا منخفضا عميقا من الارض اخفاهم عن انظار القـــوم .

وبعد ان تشاوروا فيما بينهم استقر رايهم على ان يلتحقوا بفخذ العمارات من عنزة ، التي لم يعودوا يشاهدون اي اثر لها الان ، وان يطلبوا حماية الشيخ فهد بك . وعلى هذا الاساس وصل لجمن ورفيقاه الى مخيم العمارات بسلام ونزلوا ضيوفا لدى « صلال » شيخ فخذ « الفدعان » (٣٨) ، ولكن بعد ان فقد لجمن احد ابله ، وكان يحمل الرز والطحين وادوات الطبخ وبندقية وذخيرتها . هنا اكتشف لجمن ان عنزة كانت تستعد للقيام بهجوم عام ضد « ابن الرشيد » .

* * *

في اليوم التالي كان لجمن يفتش عن اصدقاء جدد له وقد سره اذ وجد مثل اولئك الاصدقاء وكان هؤلاء الاصدقاء هم « شعلان » شيخ الرولة الذي قص عليه كيف استمتع في السنة الماضية بالتعرف الى الرحالة النمسوي « الواموسيل » الذي يسميه العرب « موسى النمساوي » (٣٩) والذي نشرت الجمعية الجغرافية الامريكية مؤخرا رحلاته في شمالي الجزيرة العربية في ستة مجلدات . وكان هذا الرحالة يعمل لحساب الاتراك والالمان ما يعمله لجمن الان لحساب بلدنا .

ولم يكن موزل هذا عسكريا وانما كـان خبيرا بالتجسس وقد امضى في عمله المضني هذا عشرين سنة .

---

(٣٨) الفدعان فخذ كبير من افخاذ عنزة وهم فرعان : الولد وضنى ماجد وتسكن الفدعان في المنطقة الممتدة بين الفرات وبادية الشام ابتداء من القائم فالى الشمال الغربي — المترجم —

(٣٩) لم يكن « الواموزل » نمسوي الاصل كما ذكر ذلك المؤلف خطأ وانما كان جيكوسلوفاكيا يعمل لحساب المخابرات الالمانيـــة .

— المترجم —

اما لجمن فقد كان عسكريا فذا ، وكانت اعماله قـــد بدات توا . ولذلك سيكون من المهم ، فيما بعد ، ان تقارن النتائج التي تم الحصول عليها في تجربة الحرب الحادة حين كان كل جانب فيها يسعى الى ان يغلب الاخر في تحقيق سيطرته ونفوذه على القبائل العربية .

كان فهد بك واسمه الكامل « ابن مشحن بن هـذال » يحظى باهتمام كبير من الاتراك ، ولذلك حاولوا بكل الوسائل والمغريات ان يصالحوه مع حليفهم « ابن الرشيد » بذات الطريقة التي حاولوها مع ابن السعود المنافس الاكبر لابن الرشيد .

وكان فهد بك داهية ثاقب الفكر الى درجة انه لم يلزم نفسه الزاما عميقا بالاتراك ، بل استعمل الحذر في ان لا يغيظهم علانيـــة .

وكانت نتيجة ذلك ان الاستقبال الذي استقبل لجمن به كان فاترا وتلك حقيقة ظل لجمن يتذكرها مدة سبع سنوات .

ولما كان فهد بك قد لعب دورا مهما في تاريخ لجمن الاخير فان ايراد وصف موجز لهذا الرئيس الشهير لن يكون في غـير موضـــعه .

ويخبرنا لجمن ان فهد بك كان رجلا مسنا يكاد يصـبح اعمى . ومع ان باصرتاه كانتا على تلك الشاكلة في ذلك الوقت ، فانهما قد تحسنتا فيما بعد ، او انهما قد اصيبتا بكثافة الا ان بصره لم يتعبه في السنوات الاخيرة . وكان بطيء الحركة ثقيل الوزن حين يمشي على قدميه ، لكنه كان رجلا صلبا وخبيرا بركوب الخيل بشكل عجيب . وكان صوته عميقا وهادئا وهو يلفظ عباراته الوفيرة ببطء . ورغم بدانته فقد كان الانفعال يبدو على وجهه حين ينفعل او يتحرك ، وتكون ابتسامته العريضة لينة لطيفة . على انه حين يريد ان يظهر تذمره تبدو ملامح وجهه وقد غرقت في جمود لا حراك به قط .

وهو مثل بقية العرب مجاملته فخمة ، سخاؤه له صفتـه الخاصة المميزة .

لقد كان حاكما بكل معنى الكلمة . وكانت سلطته في حدود مملكته الجافة غير المستقرة لا غبار عليها ، ومحبة رجاله لـه عميقـــة .

كان لجمن قد التقى لاول مرة مع فهد بك في خيمتـــه الكبرى التي لم تكن لتضم جناحا للنساء كما جرت العادة ، اذ فردت لهن خيمة منفصلة .

وكان يحيط به نفر من شمر الذين نهبت اموالهم ، ومن بينهم الشيخ ماجد ، وهم يحاورونه في ضرورة رد تلك الاموال لان « الهجوم كان غادرا ضدهم ، ذلك انهم كانوا قد دخلوا اراضي عنزة ليسلموا الى فهد بك خيله التي جلبوها معهم ، وعلى هذا فهم يعتبرون ضيوفه » .

لم يكن فهد ذا مزاج حسن انذاك . وكان ابن اخيه اكثر لطفا من عمه وهناك شيخ اخر هو « فهد بن دغيم » اعجب به لجمن اعجابا شديدا لانه كان بدويا اصيلا اذ كان يفضل المادة القاسية والاصيلة على المادة الهشة التي يصقلها الاتصـــال الصريح مع المدنية .

ومن « ليفية » (٤٠) واصلت عنزة مسيرتها . وفي اليوم

---

(٤٠) « ليفية » كتبها المؤلف خطا باسم لغهتان Lughtan وهي بئر مشهورة تقع في الزاوية الجنوبية من بادية العراق

لچمن بملابسه البدوية في سنة ١٩٠٩

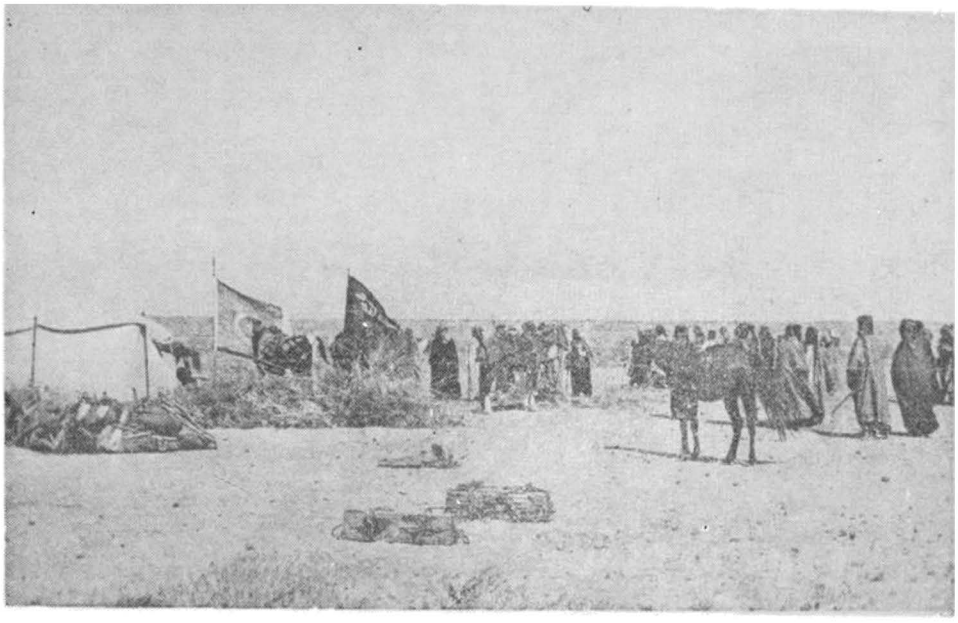

خيمة سعدون باشا مع عرب المنتفق سنة ١٩٠٩

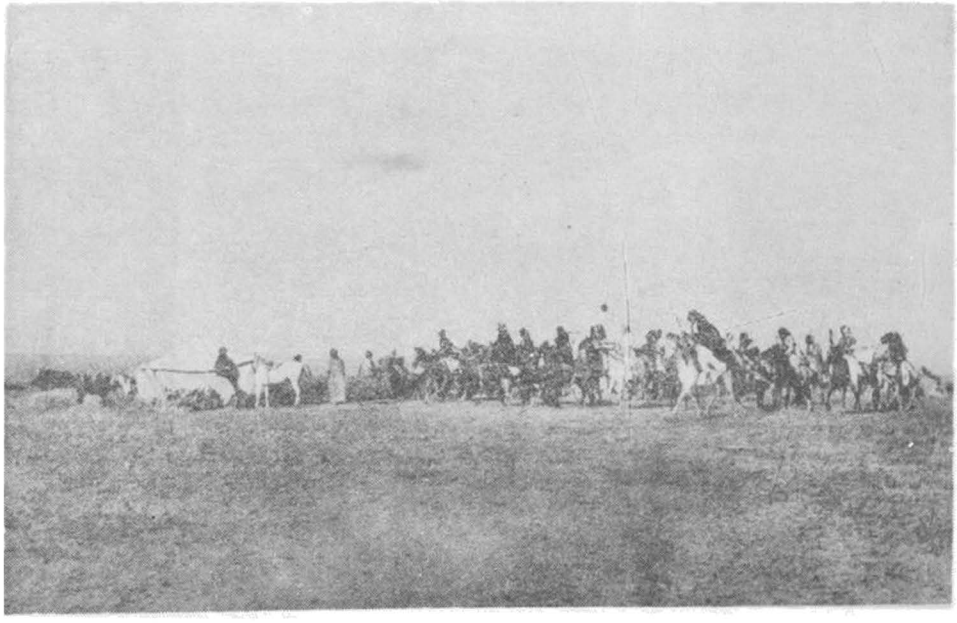

عرب المنتفق يستعدون للهجوم سنة ١٩٠٩

التالي وهو الرابع عشر من شباط هوجم مخيم « المعدان » وتم نهبه ، غير ان عنزه فقدت قتيلين في تلك العملية ومن ثم اعادت المنهوبات وهكذا لم تظفر ، حسب رأي لجمن ، بشيء .

والشيء المؤلم ان لجمن لم يبين لنا سبب اعادة المنهوبات في تلك المناسبة ، ذلك لان القوانين التي تحكم حروب الصحراء غريبة ومهمة .

لقد كان القتال اليائس من اجل الوجود في تلك الارض القاسية خلال القرون الماضية ، قد فرض قيودا على تصرفات الرجال ، ووضع حدودا بالنسبة للمعاملات الفظة . ففي كثير من الحالات الخاصة كان الرجل يعامل معاملة الضيف المعزز وتظل امواله مصونة اوانه ، حسب منطوق العدالة الواضح ، يفقد حياته وامواله ايضا .

انه لمنظر مثير ان ترى ذلك الفيض من المحاربين العرب وهم يتحركون ببطء وجلالة الى امام .

وحين كان لجمن يحدق باندهاش ، في ذلك الطوفان البشري كان يخيل اليه ان الصحراء لن تضم مثل هذه القوة العنيفة المتحركة كالنهر الهادر . ومع ذلك فقد تبعثرت تلك القوة خلال ايام وتناثرت اشبه باوراق الشجر امام العاصفة .

ولنترك الامر الى لجمن نفسه ليحدثنا هو عن تلك المفارقة الغريبة .

« كانت عنزة ، وهي اكبر قبيلة في شبه الجزيرة العربية ، قد بلغت ذروة قوتها انذاك . فقد راح شيوخها يذكرون لي تكرارا بانهم لا يتذكرون مرة سابقة سارت فيها عنزة الى الغزو بمثل ذلك العدد .

واذ كنت اتطلع من احدى الروابي وجدت الصحراء على امتداد البصر ، وهي تموج بجماهير متحركة من الاعراب وكل فريق منهم يسلك طريقه الخاص .

وكقاعدة عامة كان الخيالة يسيرون في المقدمة ، ومن خلفهم راكبو الابل « الدلول » . وفي الوسط ، وعلى ذلول منتخب ، كان « مركاب الرولة » ، ويتالف هذا « المركاب » من هودج مغطى بريش النعام الاسود تستقله فتاة من عائلة الشيخ في المعركة لتشجع المحاربين وتحثهم على البذل في القتال .

وكان « المركاب » في الايام السالفة من المناظر المالوفة لدى البدو في الحروب . اما الان فان « الرولة » هي القبيلة الوحيدة التي ظلت تحتفظ بهذا المركاب

وبعد القتال الذي وقع مع شمر بثلاثة ايام وصلنا الى طريق الحج المعروف باسم « درب زبيدة » عند نقطة «الجميمة» (٤١) .

وهذا الطريق الذي يمتد من « مشهد علي » عبر جبل « شمر » (٤٢) الى « المدينة » هو الطريق الذي كان الحجاج من ايران وبغداد يستعملونه دائما . وفي هذا الطريق سار كل من « بلنت » (٤٣) و « هوبر » من حايل الى « مشهد علي » .

وقد اخذ هذا الطريق اسمه من اسم زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد الشهيرة التي اقامت فيه مخازن للمياه تعرف باسم « البركات » (جمع بركة) ، ومنازل للاستراحة على مسافات متقطعة بامتداده ، وذلك لغرض توفير الراحة للحجاج .

ولقد خربت تلك البرك والمنازل في اوقات مختلفة على ايدي الغزاة ولا سيما الوهابيين . ولذلك لم تبق منها سوى بركة واحدة في حالة جيدة وتقع هذه البركة في الجميمة .

وقد شيدت هذه البركة بالحجر المسلح في منخفض من الارض ويتسرب الماء اليها من كل الجوانب وتبلغ مساحتها تسعين قدما وعمقها عشرين قدما وفيها درجات تهبط الى القعر وفتحات مدورة لسقي الدواب .

حين بلغت عنزة هذه البركة كان العطش الشديد قد استبد بها لعدة ايام ، وخشيت ان لا يكفيها ما كانت تحمله من ماء ، ولا سيما بعد ان سمح لافراد المعسكر ان يشربوا ما كان لديهم منه ، ولذلك صدرت الاوامر بان يقصر استعمال الماء للرجال ولابل المقدمة . اما الابل التي تحمل المتاع فلن تروى .

وما كان احد ليابه بمثل هذه الاوامر كثيرا ولذلك كانت ابل المتاع العطشى تساق الى الماء لترتوي منه وكان المعتدون يعاملون معاملة مثالية .

فقد كان اولاد الشيخ وخدمه يمتطون جيادهم ، ويطلقون النار بين الجموع ، ويلعبون بسيوفهم في الوقت الذي يكون فيه اصحاب الابل منهمكين في جر ابلهم وهي غير مصابة الى الماء لاروائها .

وفي الجميمة وصلت الانباء تقول ان ابن الرشيد كان على بعد يومين عن حائل ولذلك نصبت عنزة خيامها في خطوط متلاصقة محبوكة بدلا من اقامتها مبعثرة كما اعتاد البدو ذلك .

---

(٤١) الجميمة عدة ابار للماء تقع على الحدود العراقية السعودية على طريق الحج البري القديم الذي يجتاز منطقة الباطن ومن الجميمة يتحول السير الى طريق الحج الاسلامي الذي انشأته السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد .

ـ المترجم ـ

(٤٢) جبل شمر يطلق على جبلين لقبيلة طي هما اجا وسلمى وما ورائهما من السهول والوديان وهذه التسمية حديثة لانها مرتبطة بقبيلة شمر التي تعتبر المنطقة موطنها الاصلي ويؤلف جبل شمر اليوم مقاطعة واسعة في السعودية

ـ المترجم ـ

(٤٣) بلنت (Wilfred Scowen Blunet) (١٨٤٠-١٩٢٢) رحالة ومستشرق انكليزي ارلندي الاصل بدا حياته في السلك الدبلوماسي ونال لقب لورد وساهم في الدفاع عن قضايا البلدان المظلومة ولا سيما الهند وارلندا ومصر زار عدة اقطار عربية وافريقية واصطحب معه زوجته « آن بلنت » انشأ له علاقات طيبة مع جمال الدين الافغاني وعرابي باشا . زار نجد ١٨٧٨ واتصل بامير حائل ثم استقر سنة ١٨٨١ في القاهرة . ترجم المعلقات العشر الى الانكليزية ونشر عدة كتب عن رحالاته . كما نشرت زوجته مذكراتها عن رحلة نجد في مجلدين كبيرين

ـ المترجم ـ

وفي المنخفض الذي تقع فيه بركة الجميمة عددت من دون تدقيق حوالي ثلاثة الاف وخمسمائة بيت في جزء صغير من الارض . وكانت مفارز من القبائل العربية في وادي الفرات تصل يوميا الى هذا المكان لتنضم الى هذه الحركة املا في السلب وهو الشيء الذي يجتذب انظار الاعراب حتما .

ولم يكن رجال القبائل هؤلاء كلهم من البدو الاقحاح لكنهم كانوا افضل تسلحا ، وكان معظمهم يحمل طرازا جيدا من بنادق « مارتيني » (٤٤) ومع انهم كانوا يتظاهرون بذلك السلاح الا انهم لم يستخدموه . وهذه البنادق ذات قيمة كبرى في القتال ذلك لان الرجال اذا كانوا لا يمتطون الابل او الجياد يصعب عليهم ان يهربوا بيسر ، بينما اعتاد البدوي ان يفعل ذلك حالما يظهر له ان الموقف قد اصبح ضده .

وهؤلاء الاعراب هم من قبيلة « المعدان » وهم يختلفون عن البدو لانهم يملكون المواشي والدواب ويزرعون في المواسم قدرا من الاراضي التي تقع على ضفاف الانهار .

وكلما وصلت جماعة من هؤلاء المعدان اعلن عن ذلك باطلاق النار الكثيفة حيث يقوم كل فريق قادم منهم بتقديم رقصاته في المعسكر ، والقفز امام خيمة الشيخ ، وهم يصيحون صيحات اتقتال ، ويطلقون نيران بنادقهم في الهواء ، بغض النظر عمن يصيبه تلك الاطلاقات .

وقد برهن هذا الحال على تفكك عنزة . لانه في الايام القلائل التي اعقبت الوصول الى الجميمة كان اطلاق النار الكثيف يسمع عن بعد وقد اوقف الاطلاق انتظارا لوصول نجدات جديدة كان يتوقع وصولها .

على ان هذه النجدات المتوقعة كانت في الواقع تتمثل في ابن الرشيد والقوة المتحركة معه . فقد كان كل واحد من افراد تلك القوة يركب « ذلولا » ويحمل معه « رديفا » على ذلك الذلـــول .

لقد قام ابن الرشيد بمسيرة شاقة فاذهل معسكر عنـزة بوصوله اليه .

ولم يكن لدى رجال عنزة من وقت سوى ان يسوقوا ابلهم ويتجمعوا قبالة المعسكر وفي اعقابهم جماهير من نســاء واطفـال يسيرون مشيا على الاقدام في الوقت الذي وقف فيه ابن الرشيد عند الجانب الاخر .

واندفع ابن الرشيد نحو معسكر عنزة لكنه لم يتعقـب رجاله لان الوقت كان انذاك ظلاما دامسا .

وفي صباح اليوم التالي نهبت شمر معسكر عنزة . وبعد مرور فترة قصيرة لم تبق سوى الحيوانات النافقة لتدلل على المكان الذي كانت تلك القوة الهائلة قد نصبت خيامهـا فيـــه .

وكما جرت عادة الاعراب في القتال ، فلم يسمح ابـن الرشيد لاحد من رجاله ان يمسوا خيام شيخي عنزة بسوء ،

(٤٤) مارتيني نوع من البنادق الايطالية التي اشتهرت بقوتها ومتانتها في ذلك العهد وهي من انتاج مصنع مارتيني الذي سميت به ولا تزال الى اليوم تعرف باسم « ماطلي » في العراق

ـ المترجم ـ

اذ بعث قائد ابن الرشيد بعد المعركة الى شيخ عنزة رسالـــة يأسف فيها لانه لم تكن لديه الفرصة الكافية لتقديم احتراماته لـــه ! .

ولـم تكن الخسائر ، كما هو معتاد في مثل هذه المقاتل ، كبيرة لاي من الطرفين فقد كان بين القتلى شاب من شمر ما ان سمع بان عمه قد قتل حتى اطلق النار على نفسه ومات منتحرا .

لقد تأثرت كثيرا حين وجدت عددا من نساء عنزة بعد ان هربن من المعسكر يلقين الي بما كن يحملنه من حلي فضية للحفاظ عليها دون ان يثقن في هذا باحد من ابناء جلدتهن .

في هذه اللحظة استطاع اول شمري يدخل معسكر عنزة ان يحميني وذلولي ، واذ ذاك عدت مع « الغزو » الى معسكر ابن الرشيد الذي كان قائما انذاك في موقع « الزبالة » (٤٥) على طريق زبيدة »

قد يكون العجب اصاب لجمن اذ وجد النسوة يسلمنه حليهن . ذلك ان عقله الساذج وبساطته قد حالا بينه وبين التأكد من اهمية عمل كان القوم يتحدثون عنه فيما بعد بدهشة في انحاء القطر . فهذه بومياته تضيف شيئا ذا اهمية الى الحكايه، لكن ما افاد به لجمن بايجاز وهدوء بعد سنوات ونحن جلـوس في ظلال الشجار النخيل « بشفاثة » قد اضاف الى معلوماتنا ما كان ينقصها .

لقد استطاع لجمن في تلك اللحظة ، وقد استقر ذقنه على ركبته البادية العظام ، وعيناه تحدقان بحلم الى الجنوب عبر سهول فارغة من الصحراء بعيدا امامه والتي اجتازها في رحلة لا تنسى ، استطاع ان يحيا ذلك المنظر من جديد ، وان يستعيد ذكرى تلك اللحظات الحامية المرعبة التي ظل خلالها ضيفا في يد القدر .

في اللحظة التي اعطي فيها الانذار بوقوع ذلك الهجوم . كان لجمن يجلس في خيمة فهد بك الكبرى ، وكان ساقي القهوة يقدم للقوم اقداح ذلك السائل الاسود في الوقت الذي كان فهد بك فيه متكأ على راحلة احد الجمال ، وقد وضع سيفه المعقوف على ركبته ، وتحلق ضيوفه من حوله وهم يصغون الى رجل كان يقص عليهم احدى وقائع الصحراء .

وعلى حين غرة سمع صوت اطلاق النار من بعيد فتوقف القاص عن الكلام ، وانصت الجميع وهم يظنون ان فريقا اخـر من قبيلة المعدان قد وصل الى المخيم ، واذ ذاك استانف القاص سـرد قصته ليقاطعه احد البدو الذي اندفع الى الخيمـة من دون تحية ، وراح يتكلم ، وهو مضطرب ، كلاما لم يفهمه احد، ويلقى بكلماته الصادرة وهو يشير عبر باب الخيمة الى ناحيـــة الجنـــوب .

ونهض الجميع في اضطراب وتلقفوا اسلحتهم واتجهوا كالسيل نحو العراء ، في حين وقف لجمن عند مدخل الخيمة وهو يحدق في الاتجاه الذي اشار المبعوث الخائف اليه . كانت سحابة كثيفة من الغبار تلف الافق . وفي غمرة هذا الضباب

(٤٥) الزبالة موقع على الطريق الذي انشاه الخليفة المنصور بين العراق ونجد تقع في الطريق الى حائل تبعد زهاء ثلثمائة وعشرين كيلومترا من النجف كما انها تبعد عن بركة الجميمة زهاء خمسة وثلاثين كيلومترا باتجاه حـائل

ـ المترجم ـ

المتصاعد من الرمال الثائرة والمعسكر كان السهل يلتمع بجماعات من فرسان عنزة وهم يدفعون بخيولهم الى الامام ويسوقون الابل التي كانت ترعى بصيحات مرعبة .

ورفع لجمن ناظوره فرأى حشودا كثيفة من حشودهم يتقدمون مهطعين ، وتشير فرقعة نيران بنادقهم وازيز الرصاص المنطلق منها الى ما كان يظهرونه من عداء .

وسادت المخيم ذاته جلبة واضطراب لا حد لهما . واسرع رفيقاه اليه واخذا يحثانه على الهرب لان حياته لم تعد تساوي شروى نقير . لكنه رفض ما اراداه وامرهما بان يوسقا جمله وجملهما باسرع ما يمكن ، ويتجها بها الى ناحية الشيخ ماجد الذي كانت ابله تسير في اخر الابل المقبلة على مخيم عنزة .

واسرع الثلاثة يوسقون جمالهم بسرعة جنونية ، حتى اذا انتهوا من ذلك دفع لجمن بالجمال الثلاثة الى خيمة ماجد على عجل ، ليعود هو نفسه الى خيمة فهد بك فيقف فيها هادئا وهو يراقب ذلك المشهد الفريد بكل هدوء وسط ذلك السيل الجارف من البشر المتحرك باندفاع .

ظهر في البداية ان العدو المهاجم لابد وان يندفع الى وسط مخيم عنزة التي استبد بها الهلع المفاجيء .

كانت النسوة والاطفال ، وقد سادهم الفزع الشديد ، يتشبثون بكل ما هو قريب اليهم من متاع ، ويلقون به على ظهر كل جمل يقترب منهم .

كانت صرخاتهم المجلجلة تضيع في غمرة صيحات العدو الذي كان يقترب من المخيم بسرعة ، وكان ازيز الرصاص يضاعف من حدة تلك الاصوات المنطلقة . وكانت مهمة كل فرد ، ذكرا ام انثى ، هو ان يهرب من المخيم .

اما لجمن فقد بقي واقفا يرقب بهدوء كل ما كان يحدث . لقد وجه اول الامر انظاره الى شمر وهي تتقدم ، ثم ادار بصره في عنزة وهي تهرب ، وراح يقيس المسافة بينهما وهو يسأل نفسه من سيكون الفائز في ذلك السباق الجنوني : أهي عنزة التي تريد النجاة ، ام شمر التي تريد الاخذ بخناق عدوتها التقليدية !

لقد سجل لجمن هذه اللحظة الرهيبة في يومياته فقال « لقد ظهر وكان النصر حليف شمر لكنني لم احسن تقدير السرعة التي كانت عنزة تستطيع اظهارها »

وحتى في مثل هذه اللحظة المحفوفة بالمخاطر لم يفقد لجمن هوايته اذا ستغل الفرصة والتقط عددا من الصور للهجوم الذي كانت شمر تقوم به انذاك على عنزة .

ومع هذا كان عقله يتحرك ... فقبل ايام قلائل اضطر الى ان يهرب من مشهد مماثل للمشهد الحالي اما في هذه المرة فانه ظل هادئا خلف وابل من الرصاص ينتظر وصول هذا الحشد الهائل من البدو .

انه يقدم الان على مخاطر مرعبة لا تتمثل في كثرة الرصاص المنهمر ، بل في اولئك الرجال المخبولين الذين اقبلوا بقصد المطاردة والتطلع الى النهب ، لكنه كان يدرك ان ابن الرشيد هو الذي كان يقود ذلك الهجوم وانه يعتبر ذلك فرصة مواتية له تعينه على الالتقاء بابن الرشيد والظفر منه باذن في السفر الى حائل .

وحين سئل لجمن عما اذا لم يقدر مخاطر مغامرته تلك اجاب معتذرا « حسنا ! لو انني بقيت مع عنزة لكانت كل مطامحي في الوصول الى حائل قد ذهبت سدى »

في غمرة هذا الفوران الكاسح المخيف ظل لجمن ساكنا لوحده دون ان يتأثر بالهلع الشامل الذي كان يسود المكان ، ولم يتخذ اية استعدادات للهرب .

وحين مرت النساء به وجدن في هدوئه خير وسيلة للحفاظ على معظم ممتلكاتهن الثمينة . فقد القين بين يديه غير المرغوبتين بحليهن الرخيصة ، وذلك تقدير غريب لمروءته ، رغم انه لم يمكث معهن سوى ايام قلائل ، ولهدوئه وشجاعته التي اوحت اليهن بالثقة في قدرته على الخلاص من الاذى والحفاظ على مخلتاتهن البسيطة والغالية في نظرهن .

لم تتم تنحية عنزة عن المعسكر الا بمشقة حينما اندفعت شمر نحوه كالاعصار ، فقد اكتسحت المعسكر بفرسانها المندفعين في المقدمة ومن خلفهم راكبو الابل وهم يقتلعون خيامه في طريقهم ويواصلون تعقب الفارين من عنزة .

وحين كلت شمر من المطاردة ، ونفد صبرها من نفاهة المغنم الذي كانت تنتظره ، عادت لتجد نفسها امام عربدة نهب مريعة شارك فيها الشيخ ماجد ورجاله .

وحين اندفع الرجال المهتاجون نحو خيمة فهد بك صعقوا اذ رأوا لجمن جالسا وحده فيها وهو يدون يومياته بكل هدوء . وعقلت الدهشة السنتهم لدى رؤيته على حاله تلك فوقفوا امامه لحظة ساكنين بدون حراك .

كانت تلك اللحظة هي التي انقذت لجمن من الخطر ، المحدق به لانها منحته الوقت لان يهتف بهم صائحا بقوة ان يقفوا بعيدا عن باب الخيمة ليستطيع ان يرى كيف يكتب . لقد قال لهم ذلك بصوت الامر واذ ذاك اذعن اولئك الرجال لاوامره تلقائيا وهم الذين اعتادوا ان يفتكوا باي شخص يعترض سبيلهم .

في هذه اللحظة ظفرت شجاعته بالمكافأة التي تستحقها ذلك لان احد الشبان من رجال ماجد ممن سافته الصدفة الى دخول الخيمة انذاك ، قد اوضح لاولئك الرجال هوية هذا الرجل بكل تأكيد واذ ذاك زال الخطر عن لجمن نهائيا .

حين عادت شمر من غارتها في اليوم التالي صحبها لجمن في مسيرتها بينما لم يعد اي اثر لمعسكر عنزة الذي كان يتألف من اكثر من الف خيمة .

* * *

عادت شمر ، بعد الغزو ظافرة لتواصل مسيرتها في ذات الطريق الذي كانت تسير فيه ، وهو « درب زبيدة » ، لتتجه نحو منطقة « زبالة » على بعد اثنى عشر ميلا حيث اقام ابن الرشيد مخيمه .

ولقد امضى لجمن تلك الليلة بكاملها وهو يضمد جراح المصابين من المحاربين ، ولم يكن ليهتم براحته هو قدر اهتمامه بهذا العمل المنطوي على الرحمة والشفقة ، واكماله تضميد الجروح ، وتامين ما كانت تحتاج اليه خيله وبراذينه .

فعلى ضوء مصباحين نفطيين كليلين ، كان لجمن يعالج ـ حسب معلوماته الجراحية ـ ما اصيب به الرجال من مختلف رصاص البنادق ، او ضربات السيوف ، فاستطاع ان يخيط كتف رجل خلفته ضربة سيف جاد ، وان يجبر ذراعين كسرتا وتحطمتا بجبارات بسيطة .

كان كل ما حواليه يذكي نيران المعسكر الذي كان يضم الف خيمة من البدو الذين استضافهم ، وكانت الحماسة لا

تزال حية حتى تلك اللحظة ، وعلى استعداد لان تنطلق لدى اقل اثارة . فقد كان الجميع متفقين على العمل الذي كان لجمن يمارسه ، وهو انقاذ ذلك الخط الطويل من الرجال الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ان يخفف ذلك الغريب الامهم بمعالجته جروحهـــم .

في اليوم التالي ، وهو الثامن من شباط ، ذهب لجمن يقدم احتراماته الى زعيم شمر كلها ، وكان مخيمه يتالف في معظمه من خيام بيض ، وهو ما اعتاد اهل حايل استعماله من الخيام واستقبله احد حرس الزعيم ، واسمه ، عبدول بن مبارك بن فريك ، وكان رجلا بديعا يرتدي عباءة موشاة بالذهب، وقد ظل يسقي لجمن اقداح القهوة الى ان يغدو الامير مستعدا للقائه ، ومن ثم ادخل ـ بعد قليل ـ الى خيمة الزعيم الواسعة. ويصف لجمن لنا ذلك اللقاء فيما نشره عن مغامرته الاخرى في « المجلة الجغرافية » في هذه الفقرات المستخلصة منه فيقول « ان الامير الحالي سعود بن الرشيد » وهو صبي في الثانية عشرة من عمره ، وابوه هو « عبدالعزيز الرشيد الذي قتل في معركة وقعت سنة ١٩٠٦ وقد خلفه على الامارة ولده الاكبر « متعب » ولكن هذا لقي مصرعه ، دون توقيت ، على يد ابن عمه « سلطان بن حمود الرشيد » (٤٦) ولم يلبث « سلطان » ان مات هو الاخر (٤٧) وهكذا لم يبق من افراد تلك العائلة سوى الامير الحالي الذي كان قد اخذ الى « المدينة » (٤٨) . ذلـــك ان « سلطان بن حمود » ما فتىء ، بعد فترة قصيرة ، ان قتل بيد اخيه « سعود بن حمود » وهذا قد فتك به عمه بعد ذلك ، وجاء بالامير الحالي « سعود » من المدينة (٤٩) وكان هذا الحادث الاخير قد وقع في شتاء ١٩٠٨ـ١٩٠٩ .

حين بلغت مخيم شمر دعيت لمقابلة الامير الذي كـــان يجلس في خيمة واسعة ، وقد جلس الى جانبه الوصي عليـــه « زامل بن سبهان » .

كان سعود فتى جميلا ذا طلعة بهية محبوبة جدا . وهو خيال ماهر ، وركوب الخيل هي المتعة المفضلة لديه . ونظرا لحداثة سنه فلم يكن يحب الجلوس كثيرا في المجلس حيثتطرح قضايا القتال على بساط البحث طويلا . وفي بعض الاحايين يظهر عليه مزاج من العنف يبدو انه قد ورثه ، مع صفات اخرى ، عن ابيه عبدالعزيز .

اما الوصي زامل بن سبهان فهو في الرابعة والثلاثين من عمره وهو رغم شبابه اقوى رجل عرفته امارة ابن الرشـــيد لسنوات عديدة ، ذلك انه كان المسؤول ، الى حد كبير ، عـــن التغيير الهائل الذي يجري انذاك في الحكم القائم في اواسط الجزيرة العربية ، وفي صفة ذلك الحكم .

ففي الوقت الحالي يشيع استعمال التبغ في كل مكان ، ويدخنه الافراد حتى في ديوان الامير . وفي احدى المناسبات اشعل زامل لنفسه سيكارة امامي في خيمته الخاصـــة ، كما لعب في احدى المرات لعبة الورق التركية .

كذلك لم يكن هؤلاء البدو يتمسكون في ملبسهم بالبساطـة التي يمليها المذهب الوهابي ، وانما كانوا يرتدون اردية موشاة بالذهب ومنسوجة من الحرير .

كذلك طرأ تغيير ايضا على علاقات امارة حائل بالقوة المحيطة بها . ذلك ان عدم الاهتمام قديما بالدولة العثمانيـــة قد افسح المجال امام مشاعر الاخلاص المكبوتة ، والحفاظ على الاتصال بالباب العالي بصفة مطردة .

فحيثما كان يرد ذكر « الباب العالي » في الحديث كـان « زامل » على الدوام يطلق عليه اسم « دولتنا » اي حكومتنا

وكما هو الامر دوما بالنسبة للجزيرة العربية كانت علاقات ابن الرشيد بطوائف البدو الكبرى تتغير باستمرار .

ويبدو في الوقت الحاضر ان « العتيبة » (٥٠) وهي القبيله التي تقيم بين حائل ومكة ، صديقة لابن الرشيد بالاضافة الى اقسام من « بني حرب » (٥١) الذين يسكنون بين حائل والمدينة، وفريق من قبيلة « المطير » (٥٢) التي تسكن باتجاه الكويت وكان « مبارك بن صباح » شيخ الكويت (٥٣) يظهر صداقة غير قوية ،

---

(٤٦) اغتال سلطان بن حمود في مبكر سنة ١٩٠٧ متعب بن عبدالعزيز الرشيد واثنين من اشقائه الثلاثة اما الثالث الذي نجا من القتل فهو الصبي سعود بن عبدالعزيـــز الرشيد الذي استطاع احد خدمه المخلصين ان ينجو به الى المدينة المنورة

ـ المترجم ـ

(٤٧) لم يمت سلطان وانما قتل بيد اخوبه « سعود وفيصل » في كانون الثاني سنة ١٩٠٨ وقد اصبح سعود بن حمـود هو حاكم حايل بينما تولى اخوه فيصل حاكمية الجوف والمقاطعات الشمالية

ـ المترجم ـ

(٤٨) المدينة المنورة ومقر اول حكومة اسلامية اسسها الرسول محمد (ص)

ـ المترجم ـ

(٤٩) كان حمود بن سبهان واخوه زامل بن سبهان هما اللذان دبرا اغتيال سعود بن حمود وذلك في شباط ١٩٠٩ واذ ذاك جيء بالامير سعود من المدينة الى حائل وعقدت له الامارة على آل الرشيد ، واصبح حمود بن سبهانوصيا على الامير الصغير وقد انتقلت الوصاية ، بعد وفاة حمود، الى زامل الذي ما لبث ان تزوج من ام الامير فاصبح هو الحاكم الحقيقي لشمر

ـ المترجم ـ

(٥٠) العتيبة او العتوب من القبائل العربية الشهيرة في جزيرة العرب تتجمع في مناطق القصيم والوشم والسدير . وهذه القبيلة قد انتشرت الى شرقي الجزيرة العربية واسست الكويت والزبارة في قطر . والاسرتان الحاكمتان حاليا في كل من الكويت والبحرين هما من قبيلة عتيبة او عنبة او العتـوب

ـ المترجم ـ

(٥١) بنو حرب من القبائل التي تسكن الجزيرة العربية وكانت تتجول في نجد والحجاز

ـ المترجم ـ

(٥٢) قبيلة مطير من قبائل نجد وهي منتشرة في مناطق الاحساء والقطيف والكويت والعراق

ـ المترجم ـ

(٥٣) الشيخ مبارك بن الصباح امير الكويت (١٨٤٤ـ١٩١٥م) هو الولد الثالث للشيخ صباح مؤسس اسرة آل الصباح الحاكمة في الكويت وكان من دهاة هذه الاسرة قتل اخويه لينفرد بالحكم دونهما ، واستطاع ان ينتزع اعتراف الدولة العثمانية بالاستقلال الداخلي للكويت وذلـــك بتعاونه مع بريطانيا وبتشجيع منها .

ـ المترجم ـ

اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار انه في الوقت الحاضر هو وعدوه الدائم ، ابن سعود امير الرياض ، رفقاء في السلاح .

وكان سعدون باشا شيخ المنتفق (٥٤) وعشيرة «الضفير»(٥٥) وكلتا العشيرتان من الشرق ، اصدقاء لحائل .

وعلى الرغم من موقف المصالحة تجاه القبائل المحيطة ، لم يكن الامير ليتردد في التعامل ، بطريقة موجـزة ، مـع الشيوخ المتمردين .

ففي صراعه مع عنزة ، لزم شيخ بني حرب الثاني ، وكان ينبغي عليه ، في نظر زامل ، ان يهب لمساندة الامير ، الى ان رأى ان شمر قد اصبحت لها اليد العليا وحينئذ اقبل الى مخيم شمر ليقدم تهانيه . ولكن زامل ما لبث ان اقدم في الحال على تقييده برباط الخيل ، ووضعه في خيمة العبيد ، وهدده بالقتل ان لم تدفع عنه فدية معينة .

وكان من المحقق ان ينفذ ذلك التهديد لو لم تدفع الفدية التي كانت تتالف من مائتي ذلول وخمس وعشرين فرسا عربية . وقد كان هذا الرجل اقوى شيخ لواحدة من اعظم القبائل في الجزيرة العربية .

هذا في الوقت الذي نرى فيه المبادىء والترتيبات التي تطبق في الميدان ذات نظام سام نسبيا .

ففي باكر الصباح يعلن احد المنادين مشعرا بتحرك المخيم وعندئذ ينشر حامل العلم علمه الذي كان يحمله ، وبعد ان يمتطي الاخير ذلوله تبدأ القوة كلها بالتحرك ترفرف فوقها اعلام حائل الوردية الثلاثة ، وهي الاعلام التي خصص واحد منها للامير ، وخصص الاثنان الاخران لكل حي من احياء المدينة ذاتها .

وفي المخيم كانت الخيام البيض ، والتي لا تشبه خيام البدو السود ، تنصب على مثل هذه التشكيلة ايضا . وترسل فرق الاستطلاع مسبقا عادة ، للبحث عن العدو ، والماء ، والمرعى . وينهمك احد الرجال العارفين بشؤون السلاح في اصلاح مختلف انواع الاسلحة ، ويتلقى عن ذلك اجرا من الامير نفسه . وحين تحتدم المعارك لا يفكر البدوي في القتال الا قليلا بينما يركز تفكيره في النهب في الدرجة الاولى . ولكن شمر اعتادت ان تواصل القتال الى ان يندحر العدو ، واذ ذاك حسب يسمح لها بالنهب ، وتضرب اعناق من يقعون في الاسر ولا يستثنى من ذلك سوى الشيوخ .

والسخاء عند البدو مفرط . فما ان يصل الضيف حتى يستقبل استقبالا حارا من لدن شخص يرتدي ثوبا مذهبا ذلك الشخص هو « عبدول بن مبارك بن فريك » حامل راية ابن الرشيد .

وهذا المنصب خطير وان كان محفوفا بالمخاطر لان على حامل الراية ان يكون في مقدمة المعركة دوما . وعبدول رجل في الخامسة والثلاثين من عمره وفي جسده ما لا يقبل عن عشـرة جروح من اثر الرصاص .

وحينذاك يؤخذ الضيف الى خيمة خاصة لينعش بافداح القهوة الى ان يستقبله الامير في الديوان العام واذا كان ذلـك الضيف ذا مركز تخصص له خيمة خاصة ، وبزود بكل ما يرغب فيه ، بل انه ليتناول طعامه من صحن الامير ذاته .

اما الضيوف الاخرون فيطعمون في خيمة خاصة ، ويندر ان يقل عددهم دوما عن الستين او السبعين شخصا .

ووسائل التسلية في المخيم قليلة ولذلك فان تمثيل المعارك هي التسلية الرئيسة المعروفة .

وغالبا ما يتزعم الامير نفسه عملية التمثيل هذه ، اذ يبدأ الطراد بين الخيام ويحمل بيده رمحا ، ويتبعه بقية افـراد حاشيته من الفرسان .

وفي الليل يتون انحديث في الديوان مبهجا سيما اذا ما تناول قصص المعارك ، وتواريخ العوائل ، في الوقت الذي ينشد فيه الشعراء اشعارهم ، ويتغنى الحداة بالقصيد .

وهؤلاء الشعراء رجال يطوفون بين القبائل ، يتنقلون من واحدة الى اخرى ينظمون القصائد في مدح الشيوخ ويتلقون منهم الجوائز لقاء ذلك . واذا لم يكرمهم الشيوخ افرطوا في ذمهم في مخيمات اخرى .

ويتمسك سكان حائل كثيرا جدا بتادية فريضة الصلاة ، ويتشددون فيها دوما . وينطلق المؤذنون للصلاة في الساعـات المعتادة لذلك في اماكن مختلفة من المخيم ، ويراقب المتخلفون عن اداء الصلاة ويضربون بسبب ذلك . ورغم تمسك رجال شمر بشعائر الدين الا انهم ليسوا من المغالين في ذلك على خلاف ما هو معروف عن عرب العراق .

ففي الاسابيع الخمسة التي امضيتها مع الامير لم اسمع منه قط كلمة نقد واحدة موجهة ضد المسيحيين ، واذا ما حدث والقى علي احدهم في المجلس اسئلة تمس الدين سارع الشيوخ الى اسكاته .

وحين كان الوصي زامل يعيد على مسامعي ، ولمنفعتي ، آيات من القرآن كما اعتاد ذلك دوما ، كان يسالني ـ قبل ان يفعل ذلك ـ عما اذا كان لدي اعتراض على ما كان يفعله .

ولا يتردد اللالي الذين يشارك عدد كبير منهم في الغزو ، عن الحضور الى خيمتي ، وتناول القهوة او الطعام معي . وكنت حين اغادر الامير ينهض كثير منهم لتوديعي .

* * *

توجه الغزو سائرا على مهل في هذا الوقت الى منطقة تدعـى « الحجيرة » (٥٦) نزل القوم فيها ونصبوا خيامهم حول ابار

---

(٥٤) سعدون باشا امير المنتفق هو ابن منصور باشا ولد حوالي سنة ١٨٥٣ ومات في حلب سنة ١٩١١ ثار على الدولة العثمانية فحاصرته فهرب الى الكويت ثم توسط له طالب باشا النقيب لدى السلطان عبدالحميد فعفى عنه وبعد عودته الى العراق سنة ١٩٠٤ اصطدم مع مبارك الصباح شيخ الكويت الذي استضافه وقد وقعت بينهما معركة الطوال ، في سنة ١٩١٠ وانتهت بهزيمة الكويتيـين وسعدون باشا هو والد الشيخ عجمي السعدون رحمه اللـه .

ـ المترجم ـ

(٥٥) الضفير من القبائل العربية الكبيرة تقطن في اطراف نجد والكويت وجنوبي العراق وهي في الاصل عدة عشائـر اتحدت فيما بينها وتضافرت فاطلق عليها هذا الاسم ومن فروعها السميد والدرعان

(٥٦) الحجيرة او الحجرة منطقة حجرية تقع جنوبي البادية الجنوبية في العراق وتمتد من غربي الناصرية فتسير الى اواسط نجد وفي منطقة الحجيرة يمر طريق زبيدة وطريق الحج البري بين العراق والحجاز وتؤلف الحجرة واحدا

« اللينة » (٥٧) التي تقع بين « النفوذ » (٥٨) والحجيرة .

يبلغ عدد الابار في هذه المنطقة حوالي مائة بئر تنتشر فوق ارض مساحتها خمسة او ستة اميال . وقد حفرت هذه الابار في ارض حجرية صلدة بيضاء . ومع ان عمق البعض منها يتراوح بين عشرين وثلاثين قدما ، وقطرها لا يزيد عن قدمين ، فان من الصعب فهم الطريقة التي حفرت بها هذه الابار في الاصل .

وبجوار هذه الابار ترى بقايا دور حجرية مهدمة . وتقع اللينة على الطريق المعروف باسم « درب سلمان » (٥٩) وهي في اقصى الشرق من الطرق الثلاثة التي تمر من حائل الى « مشهد علي » .

وفي اللينة صادفنا قافلة للحجاج عائدة من « المدينة » الى مشهد علي (النجف) . وبالنظر لاضطراب الوضع في البلاد لم يستطع الحجاج استعمال هذا الطريق مدة ست سنوات ، وكانوا يفضلون عليه طريقا اخر اطول هو طريق دمشق ، او السفر بحرا من بغداد .

ولما كان الحجاج مصدر ربح لابن الرشيد ، ولسكان حائل انفسهم ، لذلك كان يسعى دوما الى بث الدعاية لهذا الطريق والسماح للحجاج بالمرور عبر اراضيه بافل كلفة .

وكانت عادة حكام حائل فيما سبق ان يؤخروا الحجاج عندما يقع هؤلاء في قبضتهم الى ان يستنفلوا اخر قرش منهم . اما في هذه السنة فلم ياخذ ابن الرشيد سوى ليرتين ونصف (حوالي ٤٥ شلنا) من كل حاج . وما عدا ذلك كانت اجرة كراء جمل من « المدينة » الى « النجف » حوالي سبعة عشر ريالا (نحو واحد وخمسين شلنا) .

وعلى هذا الاساس تبدو هذه النفقة قليلة بالمقارنة مع نفقات السفر بحرا او عن طريق سوريا .

* * *

كنت اتوسل دائما الى زامل ان يبعث بي الى حائل التي اصبحت تبعد الان عنا مسيرة ثلاثة ايام . لكنه كان يصدني عن ذلك بدعوى ان الطريق ليس مامونا في الوقت الحاضر .

والشيء المؤكد هو ان زامل لم تكن لديه اية نية في السماح لي بالسفر الى هناك ، لكنه ما لبث اخيرا ان طلبني في صباح احد الايام وسمح لي بان اغادر في الحال مع قافلة كانت متجهة الى الزبير قرب البصرة . وقد اوضح لي ان حياتي ومتاعي في يديه ، وان من حقه ان يسلبني ايا منهما او كليهما معا ، واستنادا الى ما استخلصته من تجارب معظم الرحالين الذين طافوا بهذه الاصقاع فقد استغربت كيف ان زامل هذا لم يسلبني شيئا .

والواقع ان الشيوخ اعتادوا ان يستخدموا امتعتي كل يوم لكنهم كانوا يحرصون على اعادتها الي كاملة . وكانت هنالك طبعا تلميحات تشير الى ان بعض الاشياء قد تكون مقبولة .

وبعد توديع ودي جدا غادرت « الغزو » وسافرت مع فريق من شمر كان متوجها الى « الخميسية » (٦٠) بين الزبير وسوق الشيوخ للاكتيال .

ولما كانت مسيرتنا سريعة فقد خلفنا « نجدا » وراءنا واجتزنا « الحجيرة » ثم دخلنا ديرة قبيلة «الضفير» البدوية مارين باراضي لا شكل لها الى ان وصلنا مخيم « سعدون باشا » شيخ المنتفق القبيلة الكبرى التي كانت تسكن القسم الجنوبي من « الجزيرة » في العراق .

كان سعدون باشا انذاك في مخيمه الحربي ينتظر هجوم كل من مبارك بن صباح شيخ الكويت ، وابن السعود امير الرياض عليه .

وكان هذان قد بادراه بالهجوم قبل ايام قلائل من وصولنا الى هناك ، فاستطاع ان ينزل بهما الخسائر الفادحة . والواقع ان تلك الخسائر كانت فادحة حقا بالنظر الى القتال الذي يقع بين العرب ، لانني استطعت ان اعد حوالي مائة جثة لا زالت ملقاة في ارض المعركة ، ناهيك عن عدد الجرحى الذين ماتوا بعد ذلك .

وقد ذكرت الانباء ان مبارك وابن السعود يتقدمان الان نحو مخيم سعدون باشا ، وان الانظار الفزعة قد اتجهت نحو الاتجاه الذي يتوقع ان يبدأ الهجوم منه .

شهدت خلال اقامتي مع سعدون باشا حادثا لم اجد احدا من الرحالين قبلي قد اشار اليه ابدا .

حدث في النضال السابق الذي جرى بين الضفير وعنزة ان وقع احد رجال الضفير في الاسر . وكان مجرى الاحداث يقضي بان تضرب رقبة ذلك الاسير ولكن شيخ الضفير قام باخر هجوم وانقذ ذلك الرجل من اسره وبقي الاسير الى ان وصلت الضفير الى مخيم سعدون باشا واذ ذاك ركب ذلولا في احدى الليالي وراح يسير بين الخيام ويردد بيتيين يقول « بيضت وجه ابن سويط » . وابن سويط هذا هو شيخ الضفير الذي انقذ ذلك الرجل . ويقول العرب ان هذا النوع من الاعتراف باعمال البطولة وان كان معروفا بصفة تقليدية بينهم الا انه لا يقع الا نادرا .

من الاقسام الخمسة التي تنقسم اليها البادية الجنوبية وتنزل شمر والضفير والدهامشة في هذه المنطقة ايام الربيع
ـ المترجم ـ

(٥٧) اللينه عدة ابار تقع على الطريق المار من العراق الى نجد وهذا الطريق يبدأ من النجف والرحبة الى عيدها والحميمة وهي اخر موقع على الحدود العراقية النجدية ومنها الى ابار اللينة التي تبعد عنها مسافة غير قليلة
ـ المترجم ـ

(٥٨) النفود صحراء واسعة تبدأ من جنوبي غربي الكويت وتمتد الى اواسط نجد وتتصل بها صحراء الدهنه او الدهناء كما تصل الجدرة الفاصلة بين العراق والسعودية
ـ المترجم ـ

(٥٩) درب السلمان يبدأ من نقرة السلمان في غربي الناصرية ويمر بالمفرق والجل والعاهه حتى يصل الى آبار عيدها ويبلغ طوله زهاء مئتي كيلومتر
ـ المترجم ـ

(٦٠) الخميسية منطقة في البادية الجنوبية من العراق تقع على الطريق الممتد بين الزبير وسوق الشيوخ وتصل الى سكة حديد بغداد ـ البصرة والى الجنوب الغربي منها
ـ المترجم ـ

وبعد ان حظيت بالحفاوة والتكريم من لدن سعدون باشا سافرت الى الفرات على مقربة من « السماوة » فدخلت في سهل نهري يسكنه الاعراب حتى بغداد ، وعانيت قدرا كبيرا من معاملة خشنة »(٦١) .

كنت خلال رحلتي التقي دائما « بالصليب » ، اولئك القوم الغرباء الذين لا يعرف عنهم ، كما يبدو ، سوى النزر الضئيل . وانها لحقيقة غريبة حقا ان نجد العرب يبدون مثل هذا الاهتمام بالبحث عن اصل « الصليب » وصفاتهم ، ويعتبرونهم عن جهل من الاوربيين .

ولقد سمعت بان العرب كانوا يسالون الصليب عن ديانتهم وعما اذا كانوا مسيحيين ، فلا يظفرون منهم بانكار قاطع لذلك .

والمعتاد ان يتجمع الصليب في جماعات صغيرة تتالف من ستة رجال مع نسائهم واطفالهم .

وهم يتجنبون حسب المستطاع اماكن الورد المعروفةولذلك اشتهروا بين الاعراب بمعرفتهم عن البلاد . والمعتاد عنهم انهم لا يقتنون سوى الحمير وحدها لكن بعضهم قد يقتنون شيئا من الابل احيانا .

وهم يرتدون ثوبا طويلا اشبه بلون الدخان مصنوعا من جلود الغزال وقلنسوة لكنهم حين يصطادون ـ وهم في هذا من الخبراء النادرين ـ يغطون رؤوسهم بتلك القلنسوات حيث قيل عنهم انهم يقتربون من قطعان الغزال الى بضع ياردات دون ان يفزعوها .

ويتحدث الاعراب عن الرخاء النسبي الذي يتمتع به هؤلاء الناس في المآكل . فهم يقولون عنهم ان لديهم الجديد مما يأكلونه على الدوام ، من لحم ولبن .

ويبدو ان الصليب يجوبون منطقة شاسعة جدا ، وان الاعراب الوحيدين الذين التقيت بهم ولا يعرفون الصليب في « ديرتهم » هم عرب قبيلة « قحطان » (٦٢) من جنوبي غربي الجزيرة العربية .

* * *

في المقال الذي نشرته له « المجلة الجغرافية » ، يتحدث لجمن عن انطباعاته عن ابن الرشيد واتباعه فيقول انه بعد ان قدم الى ذلك الامير ساله بان يتناول الطعام معه ، وان يجلس على الارض مع الاخرين متحلقين حول جفنة كبيرة من الرز واللحم والخضار .

ولم يستطع لجمن ان يشبع نفسه من ذلك الطعام وكانت تلك هي الوجبة الوحيدة التي تناولها في ذلك اليوم .

وفي اليوم التالي تخلص من رجال « عقيل » الذين كانوا يرافقونه لانه لم يجد اي نفع فيهم وهكذا بقي وحيدا في مخيم شعر طيلة خمسة اسابيع اي حتى الخامس والعشرين من اذار .

وفي الايام الاولى من مكوثه هناك سقطت امطار غزيرة فاخضرت الارض ، واينعت الاعشاب ، وسمنت الابل والدواب وتكورت بطونها . واستفادت شمر من هذا الرخاء فتحركت نحو الجنوب واخذت تقطع الوديان والسهول التي ازدهرت الان بالورود والعطور .

كان كل صف من السائرين يرفع الراية الخاصة به . وكان على رأس هؤلاء « عبدول » حامل الراية الاصلية وكان لجمن قد ربط نفسه بهذاالشخص الذي غادره في العشرين من شباط متوجها الى حائل ليتركه خالي الوفاض ويغرقه في الوقت ذاته بقبلات الوداع .

كان الرسل ، يوفدون على جناح السرعة الى بغداد ، والكويت ، والزبير لاعلان الانتصار المؤزر الذي حققته شمر على عنزه . وكانت السفارات تقبل من مختلف القبائل على شمر لتهنئتها بالنصر كذلك تحدث حملة الرسائل عن القاء القبض على لجمن فافرح ذلك الاتراك كثيرا وزاد املهم في وقوع مصاعب له .

هنالك بعض الشك في ان يكون الاتراك قد بعثوا الىحليفهم ابن الرشيد بتعليمات للحيلولة دون وصول لجمن الى حائل .

على ان لجمن كان بالطبع يجهل هذا الامر ولذلك اهتاج وازداد غيظا من تلك الضربة التي وجهت الى مخططاته وتعاظم حنقه حين راح يفكر بالمخاطر التي اقدم عليها لتحقيق هدفه .

وفي ذات الوقت كان لجمن يشعر بألم حاد في معدته بسبب الطعام الدسم جدا الذي تناوله مع الامير وقد استطاع ان يسعف نفسه بتقلية بيضتين من بيض النعام والتهامهما

وكان الوصي زامل عنيدا في تقبل توسلات لجمن لان يسمح له بالسفر الى حائل ، لكنه قد اقترح عليه من الجهة الثانية ان يتزوج بفتاة من شمر ، وكان نفسه قد فعل ذلك ، لتكون الايام التي تمر بطيئة اقل مضايقة .

وكان كل يوم جديد يقبل يأتي بشائعة جديدة تقول « ان ابن سعود قد وصل الى الكويت لمساعدة مبارك ضد سعدون باشا شيخ المنتفق » !

« لقد تحرك شريف مكة (٦٣) بثمانمائة رجل يقصد الاستيلاء على « القصيم » (٦٤) وانتزاعها من ابن سعود » . شائعات تتوارد الواحدة منها في اعقاب الاخرى بحيث غدا مستحيلا تمحيص الصدق من الكذب فيها ، ولذلك كان لجمن

---

(٦١) ان تزمت المسلمين قبلا في معاملتهم للاقوام الغريبة ولا سيما غير المسلمين كان يبرر عدم التعاون مع غير المسلمين. ـ المترجم ـ

(٦٢) قبيلة قحطان من قبائل جزيرة العرب تسكن الجنوب والجنوب الغربي من نجد

ـ المترجم ـ

(٦٣) كان شريف مكة في ذلك الوقت هو حسين بن علي الذي عين اميرا على مكة سنة ١٩٠٨ وقد قام بالثورة ضد الاتراك سنة ١٩١٦ ونصب ملكا على الحجاز ولكن الانكليز حركوا ابن السعود ضده فانتزع الحجاز منه ثم انتهى به المطاف الى المنفى في قبرص حيث توفى في عمان ودفن في القدس وكانت وفاته في ٤-٦-١٩٣١

(٦٤) القصيم منطقة واسعة ملأى بالقرى الاهلة في نجد وهي من اكثر بلدان الجزيرة العربية اتصالا بالعالم الخارجي . تقع على طريق القوافل ما بين مكة والعراق تكثر فيها التجارة يقدر عدد سكانها بمائة الف نسمة وهم من اكثر ابناء الجزيرة العربية سخاء وذكاء واسفارا يبلغ عدد القرى في القصيم زهاء خمسين قرية ومن اهم مدنها مدينتا بريدة وعنيزة . والاعتماد على البريدة اكثر من عنيزة ولذلك سميت باسم ام القصيم

ـ المترجم ـ

ساخطا لهذا الفيض من القصص والاشاعات فنجده يذكر في يومياته « انه لا يوجد في العالم مكان اخر واناس مثل الاعراب في اختراع القصص الخيالية ، اذ يكاد المرء ان لا يصدق كلمة واحدة من كل ما يسمعه » .

كانت هذه الاخبار المثيرة ترد الى المعسكر من الوافدين عليه من مختلف انحاء الجزيرة العربية ، وكان من بينهم نجل فهد بك الذي قدم الى هناك لعقد الصلح وهذا ما جعل لجمن يكتب هذا التعليق الساخر « لو اخذنا بنظر الاعتبار ان جماعته بل ونفسه على وجه التاكيد كانوا قد انهزموا بطريقة مخزية قبل اسبوعين لاعتقدت بانه كان يتباهى بذلك ! » .

كانت الشهرة التي اصابها لجمن كطبيب في الليلة التي راح يداوي فيها جراح المصابين قد جعلته يستدعى لمعالجة مختلف الامراض ، ويبدو انه كان يحتفظ بقدر طيب من الادوية معه لانه كان منهمكا تماما في الاستجابة لطلبات المرضى . والمدهش ان نجد معالجاته الطبية تستمر الى اطول فترة يستطيعها الاعراب لانهم كانوا يعتقدون ان « كمية » الدواء تمثل احسن امل في العلاج . فلقد تشكى احد شيوخ « عتيبة » من امساك فاستهلك في مرة واحدة قنينة زيت الخروع كلها . لكنه ، ما ان وجد انه لن يحتاج الى ذلك لسنوات عديدة على وجه التاكيد ، اعاد الشيء القليل الذي بقي من ذلك الدواء وهو خجل جدا .

بقي لجمن على علاقة ودية مع الوصي زامل الذي كان يتحدث معه احاديث طويلة مهمة تتناول مختلف الموضوعات .

كان كل يوم يمضي يضيف جديدا الى مخزون معرفته . وكانت التقاءاته مع كل طبقة من العرب ، من الامير حتى البدوي الوضيع ، قد اعطته البصيرة في النفاذ الى السجايا العربية .

لكن الايام الماضية جازته جزاء سيئا لما كان يعانيه . ويبدو ذلك في السخط الذي دونه في يومياته حين يصف خادمه « خضر » بانه « خنزير كريه وكذاب » .

ويظهر ان متاعبه قد بلغت ذروتها حين اجبر على البقاء في خيمته طوال يوم وقد احاطت به رائحة كريهة مخيفة اصبحت ساعة بعد ساعة لا تطاق . وقد ظهر ان بعيرا ميتا كانت جثته على بضعة اقدام منه ، وقد تكاسل البدو الذين القوا بتلك الجثة ان يسحبوها بعيدا عنه .

وراح يتوسل الى الوصي بالحاح ، فلوح هذا ، رغم انصلاح الامور ، باشارة لم تكن خاطئة . لقد قال ان احوال لجمن ستكون مقبولة نظرا لانه سيصبح قادرا على مواصلة رحلته في المستقبل القريب ولما كان لجمن في الواقع اسيرا لاكثر من شهر ، وان ذلك قد حدث ، بلا ريب ، بتحريض من الاتراك الذين قد كشفت صحافتهم فيما بعد عن امالهم الحقيقية ، ولا سيما سجنه في حائل ، فان الانباء وان كانت مخيبة للامال من معنى واحد ، الا انها كانت مقبولة من معنى اخر ، وان هذا يعني ان ابن الرشيد قد وافق مؤخرا على ان يطلق سراح اسيره ، ويدعه يمضي . وهذا الحدث السعيد قد حققته شخصية لجمن ذاته ، ولذلك فلا مجال للسؤال عما اذا كان قد اظهر دلائل من الضعف او الخوف لان الخطر الذي احاط به كان شديدا ، ولان جرأته ورجولته قد اكسبتاه المحبة والاحترام ليس من الزعماء بل حتى من الجفاة القساة وحتى من اللائين .

هناك حادثان دللا على جرأته ومواقفه العنيدة . واول هذين الحادثين حين اعلن عن نفسه علانية بانه مسيحي على نقيض غيره من الرحالين في الجزيرة العربية الذين كانوا ينكرون عقيدتهم سعيا وراء التخفيف من اوضاعهم .

فعلى النقيض من ذلك اعلن لجمن ديانته رغم انه كان كالاسير بين بعض المتطرفين من المسلمين ، ولم يكتف بذلك بل دخل في مجادلات حول بعض النقاط الدينية مع الوصي واحد رجال الدين ، وهو شيخ اعمى ، راح يلح عليه بان يعتنق الاسلام دينا له . وقد كتب لجمن عن ذلك الموضوع يقول انه لم يجد نفسه في وضع حسن حين خاض في ذلك الحديث لكنه استمر مع ذلك في جداله .

انه لمن المدهش ان نجد الملالي الذين يشتهرون بتطرفهم لم يكرموا لجمن لجرأته في اظهار معتقده حسب وانما انزلوه منزلة طيبة في قلوبهم ، ولم يعتبروه اقل كرامة منهم ، فاظهروا مودتهم له بتوديعه .

اما الحادث الثاني فهو عندما اقترح عليه احدهم بان يقدم هدية الى الامير تحقق له رغبته في الوصول الى حائل . لقد رفض لجمن هذا الاقتراح رغم علمه بان ذلك يعني فشل خططه ، وخيبة امل مريرة له ، وابى ان يحقق هدفه بطريقة ممجوجة لديه .

في الخامس والعشرين من اذار بسط زامل يده قائلا « اتريد ان تسافر من بلادنا ؟ لقد جاء كل من « بلنت » و « تولده » و « هوبر » بهدايا لطيفة ، وبخدم وحشم ، واذن من الاتراك ... بينما انت لم تات معك بشيء من هذا ... ان حياتك تحت رحمتنا طبعا لقانون « نجد » ... ان اديانا مختلفة . ونحن نحب حكومتنا (تركيا) ولك ان تغادر متى ما شئت . »

كانت كلمات زامل واضحة تماما هذه المرة . وعلى هذا فقد غادر لجمن مخيم شمر في ذلك اليوم مع قافلة مؤلفة من حوالي خمسين جملا متجهة الى الخميسية .

رأى زامل ان لجمن مزود بطعام يكفيه خلال الرحلة ، ولذلك بعث اليه في اخر لحظة ينبؤه ان هدية منه او حتى النقود تستطيع ان تصنع المعجزات . ولكن ماذا كان جواب لجمن على ذلك العرض ؟

كتب في يومياته يقول « لقد دهشت لذلك جدا . ولم اقل شيئا سوى انني اود السفر الى الكويت . ومن ثم رحت ادعو الله ان يفرج زامل والشيوخ والامير الصغير وسررت بالحديث مع « عبدول » حامل الراية « بيرقدار » والاخرين الذين اقبلوا لتوديعي » .

وارعدت السماء وازبدت ساعة رحيله . وفي تلك الليلة العاصفة كان على بعد خمسة اميال من المخيم الذي احتوى اماله فاحالها الى سراب .

كان اصحاب القافلة يجدون السير سريعا للخروج من المنطقة المحفوفة بالمخاطر ، ولذلك قطعت القافلة مائة واربعة واربعين ميلا في مدى اربعة ايام ، فوصلت الى ابار « الغربية » (٦٥) في اقاصي الاراضي التي كانت مسرحا للقتال بين سعدون باشا وابن السعود .

كان القتال قد نشب في تلك الانحاء قبل اثنى عشر يوما

---

(٦٥) الغربية والغربيات عدة ابار تقع في المنطقة المحايدة بين العراق والسعودية والكويت شمالي منطقة الرخيمية وتسمى باسم الجربية ايضا

ـ المترجم ـ

من وصول القافلة اليها . وكانت ارض المعركة ما تزال مفروشة بجثث القتلى العراة الملطخة بالدماء ، وقد جفت بعض هذه الجثث بينما جاءت الذئاب والنسور على البعض الاخر منها .

لقى لجمن كالعادة « معاملة طيبة من رئيس القافلة « كاظم بن فايد » الذي وجده رجلا نبيلا ولطيفا ذا خلق لم ير مثله قبلا . كذلك تعرف في القافلة الى اشخاص افاد منهم من امثال « محمد بن دويش » (٦٦) شيخ « المطير » والذي اشتهر فيما بعد بكونه واحدا من زعماء الحركة الوهابية الاصلاحية وقد اكد هذا للجمن ان في مستطاعه ان يوجهه الى اي مكان يود الذهاب اليه .

وفي الحادي والثلاثين من اذار ترك كل من لجمن وكاظم القافلة بناء على تعليمات تلقياها من زامل للبحث عن المكان الذي كان سعدون باشا يخيم فيه ، وقد وصلا الى ذلك المكان وامضيا فيه يوما كاملا بعد ان قطعا عشرين ميلا .

كان سعدون باشا نائما حين وصلا الى مخيمه . ولذلك كان على لجمن ان ينتظر ليجري حديثا معه . وتأثر لجمن فيما بعد كثيرا ببساطة ذلك الرجل التي عكست مزاجه الهادىء

فقد كان سعدون باشا يكتفي باعداد خيمة كبرى لاستقبال الضيوف واخرى صغيرة لاستعماله هو ، بالاضافة الى المطبخ . وكان كرمه لا حدود له . وكان ما يحدقه عظيما جدا . كان يمضي الوقت كله في استقبال الزائرين ، وقراءة الرسائل الواردة عليه من كل الانحاء ، وحين يحل وقت الطعام يتراس المائدة ويظل عاكفا عليها الى ان ينتهي الجميع من الاكل سواء كانوا من الضيوف ام من رجاله الاعتياديين .

لقد كان سخاء سعدون باشا يختلف تماما عما جربه لجمن مؤخرا في منطقة « نجد » حيث جرت العادة بان ينهض الرجل عن المائدة اذا ما شبع ليفسح المكان فيها لرجل غيره .

ويصف لجمن سعدون باشا فيقول عنه انه « رجل بهيج جدا » وانه يشعر بالراحة اليه اكثر مما جربه مع غيره من الناس. فهو في نظره يختلف عن بقية العرب حقا . وكان يتحدث من دون مباهاة وبعربية واضحة عن انتصاره الاخير على الرغم من ان الشخص الذي وقف ضده في المعركة كان هو مبارك بن صباح الذي شكاه بمرارة الى السلطات البريطانية اولا ، ومن ثم الى السلطات التركية ، زاعما بان سعدون باشا ، قد هاجمه وهو في رحلة صيد .

وفي اليوم التالي وهو الاول من نيسان صحب لجمن سعدون باشا في مسيرة قصيرة امتدت حوالي ميلين .

كان سعدون يركب جواده على راس فصيل ومن خلفه كان يسير حامل الراية . وقد شعر ، لجمن ان رجال سعدون عندما بدأوا ينصبون خيامهم كانوا اكثر اعتباطا من افراد شعر ابن الرشيد . كما كانت وجبات الطعام التي يقدمونها اكثر بساطة من الطعام الذي كان يقدمه حاكم حائل ومجلسه .

وصلت في ذلك المساء انباء تقول ان ابن سعود قد خرج من « الجهرة » (٦٧) واستعد للهجوم . وفي صباح اليوم التالي تهيأت النجدات وكانت تضم عددا من افراد المعدان . ورغم اشتهار هؤلاء بالقتال الا انهم لم يكونوا يتحلون بالصبر الذي اشتهر عن البدو على الرغم من تسلحهم الجيد .

كذلك قدم عدد كبير من تجار الابل من افراد « عقيل » لاداء الجزية عن مواشيهم الى سعدون باشا . وكان احد هؤلاء التجار قد سافر الى انكلترا وفرنسا وامريكا وراح يظهر صداقته للجمن ، ويساله عما اذا كان من الرحالين وقد ادهشه لجمن حين قال له « انك كذاب ! »

وفي اليوم الثالث من نيسان خيم الجميع عند خرائب حصن « الشكرة » (٦٨) وما لبثوا ان ارتبكوا لدى سماعهم نذير الحرب واذ ظهر لهم كذب ذلك النذير ، شرع القوم يكتمون اضطرابهم بمزاولتهم رقصات الحرب على ضوء نيران المخيم الواسعة المتألقة ومهما يكن الامر فان سعدون باشا قد جلس في ديوانه واصدر اوامره بالاستعداد للحرب وهو في جذل كبير .

زادت انفعالات خادمي لجمن ، وهما « خضر » و « زاوا »، ذلك لان ما جرباه في الايام الاخيرة قد هدم اعصابهما . وهكذا سارعا الى تهيئة كل الوسائل التي تمكنهما من الهرب الى « الخميسية » اذا ما نشب القتال .

وراح لجمن يعالج بقسوة مخاوفهما واذ ذاك بدا عليهما ان تحمل الخطر ايسر من تحمل السخط الذي اظهره لجمن نحوهما

شرع في الخامس من نيسان باستعراض المحاربين الذين كان عددهم يتراوح بين الفين وثلاثة الاف رجل امام سعدون باشا فكان استعراضهم منظرا فخما ابهج رئيسهم الذي التمعت عيناه وهو يرقب ذلك الجيش يمر هادرا من امامه .

كان لكل فرقة رايتها الخاصة . ومن وراء حملة الرايات ، كان يسير رجال ملتحون وهم يهزجون وقد نشروا عباءاتهم امام الريح ، وراحوا يطلقون نيران بنادقهم وكانهم يخوضون

---

(٦٦) محمد بن دويش شيخ عشيرة مطير هكذا ذكره المؤلف . والمعروف تأريخيا ان سلطان بن دويش وابنه فيصل من بعده ، هما اللذان اشتهرا بالمعارك التي نشبت بينهما وبين آل سعود وآل الصباح في الكويت ولم يرد في كل هذه الوقائع التي امتدت سنين طويلة ذكر لشخص يدعى محمد بن دويش كان زعيما لعشيرة المطير ولذلك فان المقصود هنا ، حسبما نعتقد ، هو فيصل الدويش الذي قاد « الاخوان » في تلك المعارك حتى استسلم اخيرا لابن سعود بفضل الانكليز الذين طاردوه بطائراتهم من العراق الى الكويت

— المترجم —

(٦٧) الجهرة اهم قرية زراعية في الكويت تبعد ثمانية عشر ميلا من مدينة الكويت وهي محطة للقوافل التي تقصد البصرة ونجد وموقعها مرتفع يطل على البحر وكانت الجهرة قبل الاسلام مأهولة بالسكان ولا تزال آثار بيوتها القديمة ظاهرة حيث تمتد تلال الانقاض الى مسافة فرسخين من الشمال الى الجنوب وفرسخ ونصف من الشرق الى الغرب وعلى بعد ١٤ فرسخا الى الشمال الشرقي تقع اثار مدينة الصبية التي يقال ان الصابئة هم الذين شيدوها بعد خراب بابل على ايدي الفرس

— المترجم —

(٦٨) حصن الشكرة هو قصر الشقراء الذي يقع الى الشمال الغربي من جبل صفوان وعلى الطريق الممتد من الخميسية جنوبي سوق الشيوخ الى البصية في البادية الجنوبية من العراق

— المترجم —

ميدان القتال فعلا . ونظرا لوفرة ما لديهم من ذخيرة فقد كانوا يطلقون النيران بكثرة من بنادق المارتيني ، حيث اضاف هدير صيحاتهم وطلقاتهم شيئا حقيقيا الى التمثيل الذي كانوا يمارسونه .

وكانت قبيلة الضفير التي اقبلت في اليوم التالي ، ذات منظر مثير . فقد مر رجالها وهم يسيرون بابلهم وخيولهم خببا .

في مساء ذلك اليوم كان احد الادلاء قد ابدى استعداده لان يصحب لجمن معه الى « السماوة » التي تقع على الطريق الى بغداد . وكان مطمح لجمن في وصوله الى الحضر قد جعله يفكر فيما عسى ان يفعله بشان « خضر » خادمه ذلك النذل الذي خيل اليه الان انه اصبح امنا وهذا قد اضاف المزيد الى متاعب لجمن وسخطه .

في السابع من نيسان ودع لجمن سعدون باشا باسف بالغ وقد كتب عنه يقول « هذا الشيخ اللطيف الذي بلغ به الكبر ، كان مجاملا غاية المجاملة ، وغنيا جدا ، ومحاربا ممتازا، وعدوا لدودا للاتراك الذين دحرهم في القتال في مناسبات عديدة » .

بعد ان تلقى لجمن تحيات سعدون الوداعية الطيبة ، وتزود منه بالتعليمات التي تضمن سلامته وراحته ، ركب مع جماعة من الرعاة بادئا بوادي « شواوي » الى « ابو عگار » وهو المكان الذي اختاره سعدون باشا مقرا له وابقى فيه نساءه، والملجا الذي يلتجيء اليه لتمضية اشهر الصيف فيه . هنا لقي لجمن حسن المعاملة والكرم اثناء سفره من العشيرة التي ينتمي اليها دليله وهي عشيرة « زياد » (٦٩) التي تحترف مهنة رعي الاغنام ، وتختلف عن البدو وهي احسن حالا وتسليحا منهم. وافراد هذه العشيرة كرماء ونساؤها لسن متحجبات ، وربما كان سبب ذلك انهن غير جميلات !

كان لجمن يقترب الان في مسيرته من بغداد . كان يسير بحذر شديد لان الاتراك علموا بمغادرته مخيم ابن الرشيد ، وراحوا يسعون الى اقتناصه ومعاقبته لانه قام بسفرة لم يؤذن له القيام بهـا .

وكان من الامور الحيوية بالنسبة الى لجمن ان لا يمكن الاتراك من القاء القبض عليه اثناء سفرته هذه ، وان يتمكن من دخول بغداد دون علم منهم ، ولذلك اختار الطريق الذي يوصله الى بغداد بكل حذق ومهارة ، فاخذ ينتقل بين مختلف القبائل المتجولة ، وبقي على هذه الحالة دون ان تعرف اناره الى ان وصل السماوة التي تقع على الفرات في الثاني عشر من نيسـان .

كانت كل الجسور والمعابر يحرسها الاتراك لغرض استيفاء الرسوم الكمركية في الدرجة الاولى . ولذلك كان من الضروري له ان يعبر النهر من مكان اخر .

امضى لجمن في السماوة يوما واحدا كان يبحث فيه الوسيلة التي توصله الى بغداد . وفي الرابع عشر من نيسان اندفعت ابله الى احد فروع الفرات ، ويدعى « الشاه » (٧٠) فلم تستطع عبوره الا بصعوبة بالغة وهي تسحب سابحة في النهر الى جانب « شختور » استقله لجمن نفسه وعبر به النهر .

وصل لجمن الان الى منطقة تتقاطعها القنوات والجداول العديدة التي تقع بين الفرات وفرعه ذاك ، ولقي مقابلة جافة من « صحن بن شعلان » شيخ الخزاعل (٧١) الذي كان على النقيض من سعدون باشا .

وجد لجمن ان الحكمة تقتضيه ان لايبوح بالغرض من زيارته تلك ولذلك سار الى « الحمزة » (٧٢) التي تقع على فرع « حايل » (٧٣) الجاف الان ، فمكث مع « سيد » من المنطقة وكان « رجلا بدينا جدا كثير المزاح وقد دعى ثمانية عشر رجلا لتناول الطعام عنده ولم يكن ذلك الطعام يزيد عن دجاجة واحدة ! »

اخذ لجمن يتحرك الان بحذر مضاعف وقد اضفى تنكره حماية كبيرة له ، لكن خطر اكتشاف امره قد تضاعف وهو يقترب من بغداد .

كانت معرفة لجمن بالريف الممتد بين كربلاء والنجف ، قبل ان يغادر بغداد مؤخرا ، لها قيمتها الكبرى بالنسبة الى وضعه الحالي . ذلك لان جولاته السابقة في اطراف كربلاء والنجف قد حققت الفائدة المتوخاة منها اذ استطاع عن طريق تلك الجولات ان ينشيء له صلات لها قيمتها مع اشخاص كانوا يكرهون الاتراك ، وقد اصبحوا الان مستعدين اتم الاستعداد لتقديم العون اليه غير ان معرفته بهذه الانحاء والتي حصل عليها عن طريق رحلات الصيد التي قام بها قد برهنت على قيمتها الفائقة . والحقيقة ان من المهم ان نشير الى العناية الدقيقة التي هيا بها الوضع قبل مغادرته والتي اخذ يستغلها الان ليخدع بها الموظفين الذين صدرت اليهم التحذيرات بانه سيحاول الوصول الى بغداد سرا .

اصبح لجمن الان في جزء من البلاد يبدو كل فرد فيه وكانه في حالة حرب مع الاخرين . ولذلك تجنب «الديوانية» مركز ذلك الاضطراب وابتعد عن كل الناس الذين صادفهم في طريقه حتى وصل الى قرية « القاسم » (٧٤) الصغيرة . وحين بلغ الخان

---

(٦٩) زياد بتشديد الياء عشيرة آل زياد من العشائر التي تسكن قضاء السماوة والشنافية بصفة خاصة وهي احد افخاذ قبيلة بني حجيم احدى القبائل الرئيسة الثلاث في ذلك القضاء وتنقسم عشيرة آل زياد الى ثلاثة افخاذ : العصيدة والحرادي والمناضير

— المترجم —

(٧٠) الشاه فرع من فروع شط الحلة وقد كتبه المؤلف باسم « الشان » خطأ

(٧١) الخزاعل من عشائر الفرات الاوسط وهي تتالف من عدة افخاذ وتسكن في المنطقة الممتدة بين السماوة والكوفة . واصل العشيرة من نجد لكنها استوطنت العراق وعملت لحساب الانكليز خلال الحرب العالمية الاولى وتنقسم الخزاعل الى قسمين رئيسين هما آل سلمان وآل شلال

(٧٢) الحمرة بليدة متوسطة الحجم تبعد عن الديوانية زهاء اثنين وثلاثين كيلومترا وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى الحمزة وهو السيد احمد الغريفي البحراني الذي يقوم قبره فيها ويقصده الزوار من كل الجهات (عبدالرزاق الحسني : العراق قديما وحديثا ص ١٥٥)

(٧٣) فرع حايل — هكذا ذكره المؤلف — والمعتقد ان المقصود به انه فرع من شط « الحي » اي نهر الفراف الحالي

— المترجم —

(٧٤) القاسم ناحية تابعة لقضاء الهاشمية من اقضية لواء الحلة وهي تبعد عن الهاشمية بحوالي تسعة كيلومترات

فيها وجده يعج بالجند ومع ذلك فقد امضى ليلته في بيت احد الافراد الذين كان يتصل بهم ، وكان يقع تحت انظار الاتراك مباشرة . وبهذه الطريقة اجتاز ريف نهر الفرات بنجاح .

وكاد ان ينكشف امر لجمن بسبب حماقة خادمه « خضر » وبلادته . وذلك حين القى عليه احد « السادة » في كربلاء بسؤال محرج . ومن المؤكد ان ذلك « السيد » قد راى لجمن خلال زيارته المتكررة للمدينة ، لكنه لم يستطع تمييزه ولو ان ذلك السيد بقي ينتظر حتى الليل في معسكر عشيرة«المعموية»(٧٥) الذي توقف لجمن فيه بعد ان تجنب المرور بمدينة «الحلة» .

وبسبب حماقة خادمه خضر اضطر ان يعترف بانه مسيحي مما اثار عاصفة احتجاج عنيفة من الضيوف الشيعة هناك فهؤلاء قبل ان يعرفوا هذه الحقيقة لم يانفوا ان يتناولوا القهوة بذات الفدح الذي استعمله لجمن نفسه ولقد استبدت به واحدة من حالات الانفعال العنيفة التي كان لها تاثير مدمر . ذلك انه نهض واقفا على قدميه ، ووبخ الذين اعترضوا عليه بقسوة لنقص المجاملة لديهم حيث قال عنهم « ان معاملتهم كانت من نوع لم يجابه به قبلا قط ، وانها قد وضعتهم في اوطا مستوى . فهو لم يستطع البقاء بعد ذلك مع الجماعة التي تضم مثل هؤلاء المنحطين ! » ، ولذلك شرع بمغادرة الخيمة ليستفيد مما اطلقه لسانه من شتائم ويغادر المكان . لكن السادة الوضعاء سالوه المسامحة ، وتوسلوا اليه بالبقاء . وحين استجاب لالحاحهم قبل بان يمكث معهم لكنه اصر على ان يتناول طعامه على انفراد.

امضى لجمن الليلة التالية في الطريق بين الحلة وبغداد مع جماعة من « الدليم » (٧٦) في مجلس «اشبه بوجار الكلاب!» وفي اثناء الليل وفد الى هذا المجلس اثنان من افراد الدرك التركي لكنهما لم يستطيعا اكتشاف تنكره .

لقد اصبح الان على ابواب بغداد تقريبا . ولذلك استدار في سيره فتجنب المرور بالمحمودية ، وسلك طريقا شماليي « خان المفتش » . وكان اثناء النهار يختفي بين اعراب خيموا خارج جسر « الخر » (٧٧) حتى اذا ارخى الظلام سدوله دلف الى بغداد فدخلها في الساعة السابعة مساء .

وقد سميت باسم القاسم بن موسى بن جعفر اذ يوجد فيها قبره وكانت القاسم تعرف باسم « شوشه » (الحسني : ص ١٥٠)

(٧٥) هكذا كتبها المؤلف ولعل المقصود بها عشيرة « المعامرة » التي تسكن في الاطراف والبساتين المحيطة بمدينة « كربلاء »

ـ المترجم ـ

(٧٦) الدليم مجموعة من العشائر التي تسكن منطقة لواء الرمادي والذي يسمى باسمها ايضا لواء الدليم ويقول الدليم انهم جاءوا من اواسط الجزيرة العربية ومن منطقة الديلميات فيها قبل حوالي خمسة قرون من الزمن

ـ المترجم ـ

(٧٧) جسر الخر الذي يقوم على نهر الخر او الوشاش ويقع هذا الجسر الان في منطقة قصر الرحاب (قصر النهاية) في جانب الكرخ وعليه يمر الطريق الرئيس من بغداد الى الحلة والنجف وكربلاء والديوانية وقد اشتهر هذا الجسر باسم جسر المسعودي وتم انشاؤه قبيل الحرب العالمية الاولى ببضع سنوات

ـ المترجم ـ

واسرع في طريقه الى المقيمية البريطانية . ولقد حاول حارس المقيمية فزعا ان يمنع بدويا يرتدي الاسمال من الدخول اليها . وتلقفه موظفو المقيمية اول الامر بالشتائم ، وحاولوا اخراجه من دار المقيمية بالقوة . لكنهم ، وبالدهشتهم ، سرعان ما راوا ذلك البدوي القذر اللابس ، بعد لحظة قصيرة ، يتناول طعام العشاء مع فخامة المقيم !

بعد يومين من وصوله الى بغداد ، اي في الثالث من نيسان كتب لجمن الى اهله رسالة تحدث فيها بايجاز عن مغامرته فقال « لقد اخفيت نيتي وتركتها سرا مكتوما ، وقررت ان اخرج من بغداد الى كربلاء تلك المدينة التي تبعد عنها زهاء ستين ميلا ، وتقع عند حافة الصحراء .

ولقد رتبت مع بعض اصدقائي من الاعراب ممن يملكون الابل ان ينتظروني خارج تلك المدينة ، لكنني حين حاولت الذهاب اليهم وجدت الشرطة تتعقبني لذلك تفاديت رجال الشرطة بان دخلت احد بساتين النخيل من احد الابواب ... وبينما كان رجال الشرطة ينتظرونني عند احد الابواب خرجت من باب خلفية ومضيت متجها نحو الجنوب الغربي مع قبيلة من البدو مدة ثلاثة اسابيع ولقد قامت هذه القبيلة بمهاجمة وسلب قبيلة اخرى وبسطت القبيلة المهاجمة حمايتها علي لكنها ما لبثت ، بعد اربعة ايام ، ان نهبت على ايدي قبيلة اخرى في قتال واسع نشب بينهما .

لقد فقدت معظم ما كنت احمله من متاع . ومع ذلك اعددت العدة للخروج بثلاثة جمال الى امير حائل والذي سترون مكانه على الخريطة .. وعاملني هذا الرجل معاملة طيبة لكنه رفض ان يسمح لي بالسفر . وامضيت شهرا اطوف معه وفي النهاية سالته ان يدعني اسافر لكنه لم يفعل من ذلك شيئا بل اعادني الى الاماكن المأهولة وهكذا انحدرت الى مقربة من الكويت على الخليج ، واتخذت سبيلي بين العشائر المقيمة على نهر الفرات ثم حططت رحالي انا وابلي سالما في بغداد قبل يومين .

كان وقتا طيبا ذلك الذي امضيته وان كنت قد كبحت جماحي طبعا . وذلك لان هؤلاء الناس هم من اكثر المسلمين تطرفا في العالم . ومع هذا فقد عاملني الجميع معاملة حسنة حتى بعد ان اعلنت انني مسيحي .

اخذت معي كمية كبيرة من الادوية استعملت الشيء الكثير منها الامر الذي ساعدني كثيرا . ولم اقتل احدا منهم . وشهدت المزيد من القتال . وكان علي ان اعني بتضميد جراح الكثيرين .

ولقد تضايق الاتراك شديدا من سفري ، ونشروا في صحفهم انباء عن امور مفزعة ادعوا انها وقعت لي . وقد سببت تلك الانباء فزعا بين اصدقائي في بغداد .

الصحراء اراضي محبوبة جدا ان احبها احد . والعربي شخص مفرح نقي بصفة عملية من كل الشوائب ، والجو من الطف الاجواء وان كانت تسوده بعض الحرارة ولا سيمابالنسبة الى راسي لانني كنت ارتدي الملابس العربية .

في الليلة التي دخلت فيها بغداد ذهبت الى المقيمية لكن الحرس وكل الموظفين فيها رفضوا السماح لي بالدخول اليها ، ولو انهم كانوا قبلا يعرفونني معرفة جيدة ....

كانت بشرتي سوداء تقريبا لانني لم اغتسل مدة ثلاثة اشهر ، اذ كان الماء في الصحراء ثمينا لا سبيل الى اضاعته في الاغتسال .

لقد ارسلت كل رسائلي ، لسبب ما ، الى الكويت وعلى هذا فلست اعرف ما حدث سوى رسالتين وصلتني في البريد الى هنا وعرفت منها ان ابي كان مريضا لكنني لم استطع ان اعرف سبب مرضه ، وكل ما املـه هو ان يكون قد شفى او في طريقه الى الشفاء .

انني مشدود اليوم الى احد الكراسي لانني لبست حذاء طويلا بعد ان بقيت زمنا طويلا وانا اسير حافي القدمين .

ولقد اثار هذا الحذاء كل الجروح والكدمات ، وسمم قدمي ، وتسبب في اصابتي بالحمى ، ولذلك اضطررت الى خلعـــه .

لست اقيم الان في المقيمية بعد ان فصلت ، كما يعتقد الاتراك ذلك ، نفسي عن الحكومة البريطانية .

ظننت ان علي ان اعود الى حياة المدينة لاكتشف بانني كنت في رتبة نقيب ، غير ان هذا لم يبد صحيحا ... انني افكر الان في التخلي عن حرفة السلاح لبعض الوقت ، ولاعمل موظفا دبلوماسيا في هذه البلاد . والذي اعتقده ان في مستطاعي ان احصل بيسر على منصب قنصلي في ارمينيا ، واذ ذاك ستتوفر لي فرصة اوسع للتقدم . انني سانتظر رسائلي لحوالي نصف شهر ومن ثم ساسافر الى الشمال ، الى الموصل ، ومنها الى سوريا فالاراضي المقدسة .

اعتقد ان ابي سيلومني كثيرا لانني لم ازر بابل وبيت القدس حين سامكث في هذه الربوع ... لقد زرت « بابل » ، وعلي ان اذهب الان الى « بيت المقدس » وازيل هذه اللطخة عن شهرتي ! فاذا اردتم ان تبعثوا برسائلكم الى المقيمية البريطانية ببغداد عن طريق اسطنبول فانني سابعث برسائلي بهذا الطريق ايضا اذ انها تصل الى هنا في مدة شهر . والذي اظنه ان البريد يغادر لندن في يوم محدد من الاسبوع في مقدوركم معرفته .... اقول لكم لا تبعثوا الي باي شيء ذي قيمة في البريد ... المكان هنا جميل جدا في هذا الوقت . فاشجار النخيل شديدة الخضرة والنهر فائض والازهار كثيرة . ارفق طيا صورتي الجميلة بالملابس العربية اخذت لي عند عودتي ... الا تعتقدون انني ابدو في هذه الصورة اكثر شبها باهل الكتاب ؟

يسوؤني ان يعود « الاحرار » (٧٨) الى الحكم ثانية .. يبدو ان الامور تسير في طريق مفلوطة في انكلترا ... انني اقيم الان في بيت جميل على شاطىء النهر مع طائفة من العزاب ولدينا سيل لا ينقطع من مختلف القوميات . ونادرا ما نجلس لتناول الطعام في عدد يقل عن ممثلين لاربعة بلدان متباينة .

لقد توفقت الان في معرفة اللغة العربية وكنت قبل ثلاثة اشهر لا اعرف شيئا عنها » .

---

(٧٨) يقصد بهم حزب الاحرار البريطاني وهو ثالث حزب سياسي كبير قائم الان في بريطانيا وقد تولى هذا الحزب الحكم في المرة التي اشار اليها لجمن هنا اي سنة ١٩١٠ ، وهي اخر فرصة تهيأت لهذا الحزب في الوصول الى الحكم فقد اخذ نفوذه منذ قيام الحرب العالمية الاولى يتضاءل كثيرا سنة بعد اخرى حتى الان .